القهوة

علي محمود علي

القهوه

علي محمود علي

تدقيق لغوي :- عبدالله أبو الوفا

تصميم الغلاف -: عبير محمد

رقم الايداع 2018/419119

ترقيم دولي 978-977-6594-52-1

دار فصله للنشر والتوزيع

العزيزيه - منيا القمح - مصر

٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla.pub@gmail.com

FB.com/Faslapub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي نوفمبر 2018

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصله للنشر والتوزيع
إن أي تصوير أو إعادة طابعه أو نشر بشكل ورقي أو إليكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتياً بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

القهوة

علي محمود علي

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

الإهداء

عندما بدأ شغفي بالكتابة يتقد في نفسي، كان عندي عوز المال الذي يتربحة الكاتب، ووجدته القليل؛ فتركت الكتابة وبحثت عن المال، حتى شعرت أن الحياة تتخذ منحنيات مغايرة، تعقد كل شيء، فلم أجد المال يستطيع أن يعبر عن مشاعري، لم أجد إلا هذه الكلمات التي تمثلت وستتمثل في جزء بسيط منها، فمهما ارتقيت في هذا المجال لن أستطيع وصف كل ما يدور بداخلنا مئة بالمئة، كذب من قال إنه يستطيع أن يعبر عن الفرح والحزن بحذافيره، فالفرح والحزن أعمق من أي تعبير يتضمنهما، لن أهدي هذا العمل لمن رحلوا عنا، فهم ليسوا بحاجة إلى ذلك فقد الهموني كل كلمة كتبتها، جعلوني أختلق مكان أجلس فيه وحيدًا أترع بقلب مهمومًا، أتجرع أحزاني على فراقهم ولا أفكر إلا

بهم، فهم لا يحتاجون إلى كلماتي، إنما يحتاجون إلى دعاء خالص من أعماق قلوبكم أن يغفر الله لهم ويتغمدهم برحمته، هم وجميع موتى المسلمين.

إهداء خاص إلى والدتي وإخوتي،
سامية محمد المشاط، نادية محمود، أحمد محمود، محمد محمود.

إهداء خاص إلى دكتورتي الغالية،
الدكتورة/ سماح الجارحي، وأستاذ دكتور/ معالي إبراهيم الملكي.

إهداء وشكر خاص إلى من شارك بوقته وجهده لظهور هذا العمل،
سامية محمود علي، عبد الرحمن نشأت، عبد النعيم محفوظ، لبيبة محمد سعيد، المهندس شادي محمد.

إهداء خاص إلى أصدقائي الأعزاء،
مصطفى أبو عيد، عمر حبيب، محمد الساكن، عبد الله موسى، عبد الله الجيزاوي،
دينا محمد، سلمى الطويل، سحر حمدي، سارة الشهالي، سارة ماهر صديق.

المقدمة

عندما تدركك إنسانيتك؛ فلا تجد سوى المشاعر الكامنة في طياتك، لتعبر عما يحدث حولك.
ترى الحياة بمنظور آخر؛ فتكتشف مدى قسوتها، ومدى انصياعك لرغباتها وتعتقد أنها رغباتك.
كلما حاولت أن تجد معنى شاملًا للحياة، تذكر ذلك الرجل العجوز الذي شنق نفسه في شجرة، تجاوز بطوله طولها فما أشد صبره على الموت، فكان هذا الأمر أهون مما تجرعه في حياته، فماذا تعني لنا الحياة!
في محاولة للبحث عن سر السعادة والحزن، نصطدم بتجارب تخبرنا عن ذلك السر، فالحياة تمتلئ بالكثير والكثير.

الفصل الأول

الساعة الثانية صباحًا، لا أستطيع النوم؛ عقلي لا يكف عن التفكير، أشباح الماضي تطاردني، وغياهب المستقبل تقتلني، لأصطدم بذلك الواقع الحتمي المرير، أتجه إلى تلك المحاولات البائسة التي علمتني أمي إيّاها عند الصغر، أبدأ بالعد حتى أصل إلى ثلاثة آلاف، ولا يُحالفني النوم، لم أحظ من تلك المحاولات سوى بجفاف فمي، أُشعل نور الغرفة وأذهب إلى المطبخ لاحتساء القليل من المياه، في طريق عودتي إلى الغرفة ألمح شريط من الدواء أزرق اللون؛ فألتقطه من أعلى الرف لأقرأ اسمه -نايت كالم «منوم»- كنت على دراية كاملة بهذا الدواء ضعيف المفعول، فهو مهدئ لا أرى له نفعًا، أتناول ثلاث حبات منه لمحاولة إخماد ثورة التفكير التي لاحقتني، بعد ذلك أتجه إلى الفراش مرة أخرى لأتكئ على جانبي الأيمن ثم أغمض عيني.

يد تربت على كتفي الأيسر، تدفعني للأمام ثم تجذبني للخلف مع صوت لم أميزه، أنظر بنصف عين يملؤها القذى، كانت والدتي تدعونني للاستيقاظ، أومأ رأسي لها بالموافقة لتتركني وتذهب، بعد دقائق أتجه إلى

حافة الفراش، أتحسس أرضية الغرفة بأطراف أصابعي، ثم أعتدل بوضعية الجلوس -ما أسوأ الاستيقاظ مبكرًا بعد ليلة من العناء- أظل هكذا ثلاث دقائق في محاولة لتصحيح مسارات تدفق الدماء لجميع خلايا جسدي مرة أخرى، ثم أستقيم بجسدي واقفًا، أترنح بعض الشيء، لكن سرعان ما أستعيد اتزاني، أتجول في الشقة باحثًا عن أمي لكني لا أجدها؛ أشعر بسوء اليوم من بدايته، أمر بجوار الثلاجة لتستوقفني ورقة صفراء ملتصقة ببابها مكتوب عليها: «آسفة حبيبي، ذهبت مبكرًا للتأمينات بسبب انقطاع المعاش، أمك».

أقرأ رسالتها بابتسامة فاترة، ثم أكمل لا شيء الذي أفعله. أشعر بالجوع الشديد، أكاد أسمع استغاثات أمعائي؛ أقبض على بطني بكلتا يديّ، ثم أدور بعيني في المكان فلا أجد شيئًا يُؤكل؛ إلا من بقايا أرز وملوخية، أعتقد أنها غير صالحة للإفطار أو للغداء، رائحتها لم تكن مبشرة، ماذا أفعل! ليس أمامي سوى الاعتماد على نفسي وتحضير وجبة الإفطار.

تنتهي محاولاتي بعمل كوب من الشاي، أرتشف منه رشفتين فلا أجد له مذاقًا جيدًا؛ أتركه وأذهب لتبديل ملابسي، معاناة في اختيار الملابس، فلا أجد شيئًا نظيفًا فما أكثر الثياب المتسخة، في النهاية أحضر قميصي الأزرق الزاهي وأقوم بكيه، عشر دقائق وكنت قد انتهيت من

إكمال ملابسي، أتجه ناحية باب الشقة للخروج ولكن تدعونني نفسي للانتظار قليلًا فأنتظر؛ أشعر أن عقلي أصبح يقوم بوظيفته الآن؛ أتذكر أنني لم أحضر الهاتف والمحفظة، وكذلك مفاتيح الشقة، يبدو أن هذا نتيجة التقصير في عدد ساعات النوم.
أُحضر أشيائي ثم أقف أمام باب الشقة مرة أخرى؛ أتذكر هل نسيت شيء لم أتذكر شيئًا آخر، أُغلق الباب ثم أهبط الدرج المتآكل ذا التراب، الذي وارى لونه فجعله بني أكثر منه أبيض اللون أو أزرق، كان أخر مشهد له في مخيلتي منذ الصغر ولا أتذكر لونه الآن.
أجتاز تلك الدرجات حتى أصبح أمام باب العمارة، عن يميني عم زكريا البقال، وعن يساري عم عبده الفاكهاني، أتمهل قليلًا وأتطلع لمستقبل مركز الإحساس بالشبع عندي، هل يرضى بشيء من البقالة أو الفاكهة؟ وجدته يسحبني إلى عم فوزي قدرة صاحب عربة الفول، ثاني عطفة بعد صيدلية الصحة، أتناول رغيفًا واحدًا فقط؛ لا أريد أن تمتلئ معدتي إلى أخرها؛ فهذا يوم الخميس أو كما أُسميه يوم التجمع في مطعم الباستا.
أقوم بالحساب ثم آخذ طريقًا للوصول إلى موقف السيارات، تلك المعاناة التي تجعل السير على الأقدام ٣١ كيلو متر أحب إليّ من الركوب في الزحام الشديد والأصوات الصاخبة، ولا تدري أي عربة جاء عليها الدور

للركوب، إلا في حالة إن كنت أنثى جميلة؛ فهذا يضمن لك مكانًا مميزًا في عربة لم تتوقع أن يكون الدور عليها، وهذا قانون موقف العربات، القليل من سرعة البديهة مع الكثير من المجهود استطعت أن أحجز لنفسي مكان مميز بجوار النافذة الزجاجية المفتوحة نصفها.
أستنشق الهواء العبق برائحة الأتربة الممتزج بالروائح الكريهة، لكنيٍ لم أنثن يوم من الأيام عن الجلوس في هذا المكان، إلا إذا أُرغمت على غير ذلك، كان هذا موعدي مع المستقبل، كلما ازداد الهواء ولفحني تياره الذي يتغلغل بين خصلات شعري كلما أشعرني بالقوة.

الفصل الثاني

يمر الوقت سريعًا فيضيف إلى مي المزيد من الارتباك والتوتر؛ لم تعتد التأخر عن أي محاضرة، قامت بتبديل ملابسها في عُجالة، ثم وقفت تدور برأسها في غرفتها كالنحلة حتى اهتدت لسؤال والدتها:

- «ماما ما شفتيش الجزمة البوت البني؟»

- «شوفيها تحت سريرك يا مي».

«أشد ما أكره لبس الأحذية عامة وهذا الحذاء خاصة؛ أُعاني في تلك اللحظات حتى أنني أحيانًا أشعر بالحسد تجاه الإنسان البدائي؛ كان يمشي حافي القدمين ولا يشغله تناسق الألوان»، تقول ذلك وهي تنظر أسفل سريرها الخشبي، ثم تضيف قائلة: «ها هي قابعة في الركن البعيد الهادئ، كيف الوصول إليكِ! بسيطة، عصا السيلفي لن ترفض لي هذا الطلب، تعالَي، أمسكتك».

«أف». كانت قد انتهت من الفردة اليمنى والآن يتبقى «تكة» على ارتداء الفردة اليسرى.

الهاتف يصدر صوته العالي المزعج، تتوتر الأعصاب من

نداءاته المستمرة.
- «مين قليل الذوق اللي بيتصل دلوقت؟» قالتها بتأفف شديد وهي تنظر إلى هاتفها.
- «سارة! مش هقدر أرد عليكِ دلوقت يا سارة».
كانت تتمايل وعلامات الغضب ترتسم على قسماتها، وفمها لا يكف عن إطلاق كلمات الغضب ولعن هذا الحذاء، وما يزال الهاتف يطلق نداءاته، وعندما تمادت سارة في محاولات اتصالها بمي؛ توقفت مي عما تفعله لتلتقط الهاتف وتقول بنبرة حانقة:
- «إيه يا سارة! كفاية رنة واحدة حرام عليكِ».
تجيب سارة عليها بشيء من الدهشة المشوبة بالاعتذار عن لا شيء:
- «آسفة يا مي، أنا كنت عاوزة أبلغك إني مش جاية النهارده».
تتابع مي بنفس النبرة الحانقة التي أصبغتها على حديثها:
- «ماشي يا ستي، أحسن برضو عشان متأخرة وصعب أعدي عليكِ، سلام بقى».
تغلق مي الهاتف قبل أن تسمع من صديقتها كلمة سلام، وتعود لمتابعة عملها الذي قطعه اتصال سارة .
«أخيرًا!» تقولها وكأنها خرجت من حرب منتصرة وما هي إلا فردة حذاء ارتدتها.
تأخذ طريقها إلى موقف العربات، لم يكن يشكل لها

الزحام أي متاعب.

الفصل الثالث

تجلس سارة على حافة الفراش تنظر في أرجاء حجرتها المزركشة بالصور الكرتونية، عبر شعاع الضوء النافذ إلى حجرتها المظلمة، حتى تأتي والدتها فتدفع الباب الموصد، وتقول مندهشة:
- «إيه يا حبيبتي اللي مقعدك في الضلمة كده؟»
تتجه الأم إلى قابس النور ثم تضغط عليه لينبجس نور أبيض يغشي الظلمة ويبددها.
فتضع سارة يدها على عينيها مسرعة؛ لتواريهما عن أمها، التي اقتربت منها وقلبها يحدثها أن هناك ما يخفى عليها؛ فقالت بصوت مبحوح يشوبه الخوف:
- «ما لك يا بنتي؟ أنتِ بتعيطي؟»
تجيب سارة وما تزال تفرك في عينيها:
- «أبدًا يا ماما، حاجة دخلت في عينيا مش أكتر».
ترضى الأم بتلك الإجابة فتتابع حديثها:

- «طيب مش هتروحي كليتك؟»
تومئ لها سارة برأسها للموافقة؛ فتتركها أمها وتذهب.
تضع سارة تحاليل في حقيبة يدها، ثم تلقي نظرة أخيرة على حجرتها وكأنها تسترجع ذكريات الطفولة التي عاشتها؛ وكأن هذا آخر عهدها بتلك الحجرة وتلك الذكريات الجميلة.

****

يقف أمجد أمام حجرة أمه لا يعرف ماذا يحدث؛ كأنما انتقل إلى عالم آخر أو أنه تمنى أن ينتقل إليه ليهرب من حقيقة عالمه، لا يشعر بأي شيء، الهدوء الذي غشّى هذا المكان الكئيب، لم يقدر على الوقوف على قدميه دون مساعدة، فاتجه إلى أقرب حائط بجوار حجرة أمه؛ ليستند عليه لكن لم تطاوعه قدمه على الوقوف؛ ليهوى أرضًا ماسحًا بظهره الحائط الماكث خلفه، ثم وضع رأسه بين راحتيه، لا يريد أن يعود إلى هذا العالم المخيف، دقائق حتى أُنتشل من عالمه الافتراضي بصوت باب الغرفة يُفتح؛ رفع عينيه ليرى الطبيب يتخطى هذا الباب ومن خلفه والده، توقف الطبيب قبل الذهاب إلى الخارج وعندما فتح فمه للكلام أحاط أمجد أذنيه براحتيه؛ حتى لا ينفذ إليهما أي كلمة وكأنما يمني نفسه ولا يريد أحد أن يقطع أمانيه.

خرج الطبيب من الشقة فرفع أمجد راحتيه عن أذنيه؛ ليسمع صوت صفقة الباب، اتجه الأب إلى ابنه المكلوم فشد على عضديه ثم قال له بصوتٍ خالطه الحزن:
- «أمجد أنت مش صغير، وأنت عارف إن كل حاجة من عند ربنا خير و...»
أفلت أمجد من بين يدي والده مندفعًا تجاه حجرة أمه؛ ففتح الباب مسرعًا لتقع عيناه على الملاءة البيضاء التي تغطي الأم من الرأس إلى أخمص القدم، اقترب أمجد رويدًا من أمه وهو ينظر إليها عبر هذا الغطاء من قدميها وصولًا إلى رأسها، فرفع الغطاء ليراها نائمة مثلما كان يراها من قبل، لا تختلف كثيراً سوى بياضًا في الوجه مشوبًا باصفرار؛ ولم يكن هذا الوجه غريبًا عليه، فقد رآها في أكثر من مناسبة مرضية وهي على هذه الحال، يضع أمجد يده على إحدى وجنتيها ثم ينادي بصوتٍ ضعيف يكاد لا يُسمع: «ماما». كان ينادي والدموع تتلألأ في عينيه، حتى سقطت أول دمعة مع أول سكتة لم يسمع فيها جواب على ندائه. كرر نداءاته مع مزيد من الدموع واليأس الذي أحرق أحشاءه، يضع الأب يده على كتف ابنه المنكب على أمه؛ ليسمع منها ولو طنين يطمئن به قلبه الذي اتقد، فأمره قائلًا:
- «أمجد اخرج، اخرج يا أمجد». قالها الأب محاولًا السيطرة على شعوره الذي يضاعف شعور ابنه.

ولكن لم يتحرك أمجد من مكانه؛ وكأنه لم يسمع شيء قد قيل له.
جذبه والده إلى أحضانه وهو يربت على ظهره؛ لتتضاعف دموع أمجد وكأنها سيول آخر الشتاء.

الفصل الرابع

يقف إبراهيم أمام منزله واضعًا نظارته الشمسية على عينيه لتواريهما؛ يُضفي إلى وجهه شعور العظمة. هندم ملابسه وهو يسير بخطواته الممدودة المتناسقة مع جسده النحيل، ثم توقف عند أول تقاطع للشارع الرئيسي، فنظر إلى شاشة هاتفه وسرعان ما شعر بيد أحدهم تربت على كتفه؛ ليلتفت إلى يساره ثم يقول بصوت خالطه المزاح:
- «بقالي ساعة مستنيك».
يرد عليه محمد مصبغًا نبرته بنفس النبرة المازحة لصديقه:
- «أنا لسه شايفك جاي دلوقت».
يبتسم إبراهيم لحيلته الضعيفة ثم يتابع وما يزال تعلو الابتسامة شفتيه:
- «يلا بينا».
يسير الاثنان جنبًا إلى جنب حتى يأخذ إبراهيم مسار

آخر لتفريعة لا تؤدي إلى موقف السيارات؛
يتوقف محمد صائحًا:
- «أنت رايح فين يا ابني! الطريق من هنا».
أشار إبراهيم إلى صديقه بيده وهو يقول:
- «تعالى بس».
لم يكن أمام محمد حل سوى أن يسمع كلام صاحبه؛ لعله ينتهي عن أفعاله.
توقف الاثنان عند بيت حديث البناء، مُلقى أمامه كثب من الرمال والإسمنت؛ فدخل إبراهيم المنزل، بينما ظل محمد واقفًا أمامه، لكنه أدرك مقصد صاحبه منذ اللحظة الأولى لرؤيته هذا البيت، يرفع محمد ناظريه عن الرمال والإسمنت إلى السقالة العالية الموازية للمنزل المقامة بعروق الأخشاب السميكة المتشابكة بعضها ببعض؛ فيتأمل العمال وهم يناطحون السحاب دون خوف من أجل لقمة العيش، قطع إبراهيم تأملات صاحبه بدعوته للذهاب.
سار الاثنان جنبًا إلى جنب معيدين هذه الطريق التي قطعاها من قبل إلى هذا المنزل، فتمهل إبراهيم في خطواته ليعد الأوراق النقدية فصاح به محمد قائلًا:
- «يلا يا إبراهيم هنتأخر، كان لازم تاخدهم النهارده».
كان إبراهيم قد وصل إلى آخر ورقة ليضع النقود في جيبه ويبتسم قائلًا:

- «أنت عارف إني كنت شغال مع المعلم الأسبوع إلى فات؛ ولو مروحتش النهارده هيقول لي استنى الأسبوع اللي بعده، وحلني على ما أخد فلوسي».
- «طيب بسرعة يا إبراهيم، اخلص».
تسود لحظة من الصمت حتى تمر فتاة جميلة؛ ليبدأ إبراهيم طريقته الغزلية المضحكة، أشاح محمد بوجهه عنه إلى الجهة الأخرى، مرتديًا عباءة الغضب تحت ابتسامة عريضة لم يستطع مواجهة صاحبه بها؛ حتى لا يتمادى في أفعاله، يتابع الاثنان طريقهما إلى الموقف، حتى يتوقف إبراهيم عند حانوت أنتيكة فقد جذب انتباهه شيء بالداخل.
اتجه إبراهيم إلى داخل الحانوت مسرعًا مشيراً إلى صاحبه بالانتظار، تمر خمس دقائق، حتى عاد إبراهيم وعلى رأسه طربوش أحمر اللون بزر أسود.
نظر إليه محمد مشدوهًا ثم سرعان أن تحول شدهه إلى ابتسامة ارتسمت أعلى شفتيه بعفوية، فقال مازحًا:
- «يلا يا راجل يا أهبل».
ضحك إبراهيم ثم اتجه إلى صاحبه يسلكان طريقهما إلى الموقف، كلما مرت فتاة أحنى لها إبراهيم طربوشه نزولًا إلى جبهته، واصطنع طريقة غريبة لمشيته، أشبه بطريقة ثلاثينات العصر الماضي، ثم يطلق من فيّه بعض الأغاني القديمة مثل: «قدك المياس، ويا سمبتيك خالص

يا مهندم».
فلا تتمالك الفتيات أنفسهن من رؤيته بهذا الشكل فيضحكن وأيديهن لا تفارق أفواههن، وأحيانًا يُسمعنه بعض الكلمات التهكمية مثل مجنون أو أهبل، ومنهن من لم تعره انتباهًا من الأساس.
ضجر محمد من تصرفات صديقه فقال ممتعضًا:
- «إبراهيم هتفضحنا؛ هو أنا جايبك من فيلم قديم، هات الطربوش ده حطه عندي في الشنطة».
يرد إبراهيم ضاحكًا:
- «لا سيبه خلاص، وأنا هامشي وأنا ساكت».
انطلق الاثنان في طريقهما إلى الجامعة، دون أن ينبس أحدهما بكلمة واحدة.
*****
نصف ساعة حتى أصبحت أمام باب الجامعة، زحام شديد جدًا. أعتقد لو أنني جئت يوم الجمعة لرأيت هذا الزحام أيضًا؛ هناك عشق لا ينتهي بين كل جزء في الجامعة والطلبة سوى قاعة المحاضرات، أتجاوز الردهة، خطوات داخل الجامعة حتى أسمع نداءات من خلفي؛ أتجه بناظري إلى المنادي.
فأقول مبتسمًا:
- «لسه واصلين!»
يجيبني محمد بوجهٍ مكفهر:

- «أه، أخرني الله يسامحه».
أنظر إلى إبراهيم مشدوهًا مما أرى، ثم أشير بيدي إلى طربوشه وأقول:
- «ايه يا إبراهيم اللي أنت عامله في نفسك ده!»
يرد إبراهيم بوجهٍ يشبه كثيراً برود وجه الضفدع:
- «أيه رأيك؟ وحش؟»
- «لا حلو، هتفضحنا والله».
يوافقني محمد الرأي فيقول:
- «والله قلت له كده».
أطرف عيني باحثًا عن رابعنا، ولكن لا أراه فأردف قائلًا:
- «فين أمجد؟»
يكتفي الاثنان بإصدار علامات الاستنكار دون أن ينبسا بكلمة واحدة.
أنتقل من سؤالي عن أمجد إلى ما هو أبعد عن قلبي فأقول:
- «طيب هنحضر ولا أيه؟»
يجيبني إبراهيم بوجهٍ مكفهر:
- «أنت عارف يا رامي إني بزهق بسرعة وما بحبش أحضر محاضرات؛ روحوا أنتم وأنا هاستنى أمجد في الكافتيريا».
- «براحتك يلا يا محمد».
أمرق إلى داخل قاعة المحاضرات بصحبة محمد، وكان هذا العمل إجباريًا بالنسبة إليّ.

أمر بالصف الأول حتى تقع عيناها عليّ فأحاول لفت انتباهها أكثر لحضوري، أشعر أنها رأتني بما يكفي بل وضجرت من أفعالي أيضًا، أكمل مسيرتي إلى البنش الأخير.
ساعة ونصف ولا أعلم عن أي موضوع يتحدث الدكتور، وهذا يشعرني بالذنب أكثر من عدم حضور المحاضرة، ولكن مجبر على الحضور. أحيانًا أفكر في والدتي وما عانته من أجلي، ولكن أختلق لنفسي الأعذار حتى أُريح ضميري: «مش أنا بس إلى كده».
تنتهي المحاضرة ليبدأ الطلاب في الانسحاب تدريجيًا.
لم يتبق في قاعة المحاضرات سوى سارة التي كانت تجلس وحيدة في آخر المدرج ومي وبعض الأصدقاء، اللاتي اتجهن إلى سارة تترأسهن مي.
ابتسمت مي ابتسامتها الخبيثة ثم قالت بنبرة تهكمية:
- «أنتِ جيتي أهو، ما لك بقى؟»
تنظر إليها سارة بابتسامة تخفي ما تحتها من ألم ولم تنبس.
تتابع مي دينونتها التهكمية على صديقاتها؛ فتبدأ بسارة مبدية ملاحظتها على وجهها؛ قائلة:
- «أيه يا ابنتي إلى عمل في وشك كده؛ بقيتي شبه الزومبين كده ليه!»
تضحك الصديقات، وتبتسم سارة ابتسامة لم تفتر لها عن أسنان دون أن تنبس.

عندما لم تجد مي منها مردود لسخريتها؛ تدرك حينها أنها في حالة من الاكتئاب فتقول وهي تجذب صديقاتها:
- «يلا يا جماعة، شكلها مكتئبة ومش ناقصين على الصبح».
يتفرق الجمع؛ فتبقى سارة كما هي وحيدة تتجرع أحزانها والخوف لا يرحمها.
تلتقي مي برامي عند مخرج الجامعة.
أقترب منها وأهز رأسي وأنا أنظر إلى الأعلى وكأنني لا أعرفها.
تستوقفني قائلة:
- «أنت خارج مع صحابك؟»
أرد عليها وعلامات الاستنكار ترتسم على وجهي:
- «أنتِ بتكلميني أنا؟»
تتابع:
- «أنا ما بهزرش».
أشعر أنني محاطٌ بالنكد من كل اتجاه يملي عليّ عقلي أفكارًا حصيفة:
- «تعرفي إنك جميلة أوي النهارده».
- «تبقى خارج مع صحابك».
لم تكن أفكارًا حصيفة بما يكفي،
أشعر بالتردد، أنظر إلى يساري وأنا أعض على نواجذي، ثم ألتفت إليها قائلًا، وما أزال أشعر بالتردد:

- «لا...أه...أنتِ شوفتيني حضرت أهو زي ما اتفقنا».
- «ماشي يا رامي، بس ما تنساش لما تخلص تكلمني».
أنظر إليها ثم تفتر شفتي عن ابتسامة لها مردودها في نفسي، فأقول:
- «عشان تنكدي عليا، صح؟»
ترد ابتسامتي بابتسامتها الأكثر منها تهكمًا:
- «أنت عاوز طول الوقت تفضل فرحان وسعيد!»
لم تنتظر مني إجابة فتابعت في عجالة من أمرها:
- «سلام علشان اتأخرت».
تذهب مي وتتركني أفكر في نكد يوم الخميس، أرفع رأسي إلى السماء وأتمتم ببعض الكلمات، ثم أتجه إلى أصدقائي.

(في مطعم الباستا الذي اعتاد الأصدقاء التجمع فيه)
«حد يكلم أمجد»، قالها محمد وهو يعبث بورقة المينيو.
أخرج إبراهيم الهاتف من جيبه، وقام بالاتصال، تبعها دقيقة صمت، حتى قطعها قائلًا:
- «ما بيردش، شكله تعبان، نخلص ونعدي نشوفه ما جاش ليه؟»

الفصل الخامس

قرُب موعد صلاة الظهر، فترقبِ أمجد ووالده تشييع الجثمان، كانت لحظة صعبة جدًا عليهما عندما وضعت الجثة في النعش، وحملها أربعة ليخرجوا بها من المنزل، وتستقبل حياة غير الحياة.

شعر أمجد بهلوسات سمعية وبصرية في ذلك الوقت، أو أنها تمنيات كامنة داخل طياته ورغباته المكبوتة؛ فتارة يراها تتحرك، وتارة يراها تجلس في النعش وترفع الغطاء عنها، أو يسمع صوتها وهي تقول أنزلوني ما زلت حية.

اتجه النعش إلى مسجد البلدة، فلم يبعد كثيراً عن منزل أمجد سوى ثلاث عطفات، يتخللها طريق يمتد طوله إلى ٠٠١ متر.

يجلس أمجد منزوي يقرأ القرءان بنبرة باكية وأنفاس متقطعة، حتى يؤذن المؤذن للصلاة، ومن بعدها أحضروا الجثمان وتأهب الإمام لصلاة الجنازة بقول ما ورد عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم بدأ الصلاة.
وقف أمجد في الصف الأول يتضرع بالدعاء إلى الله، والبكاء أشد صوتًا من صوته، والقلب أشد تعلقًا ودعاءً وقربًا إلى الله من لسانه.
انتهت الصلاة وحُمل الجثمان على أربعة أكتاف، وعلم أمجد أن اللحظات الأخيرة تكتب نهاية القصة الحزينة.
هذا الوجه، وهذا الجسد، وهذا الثوب الأبيض الذي يغطيه كل ذلك سيختفي في لحظات، الأم التي كانت تتحرك ويفيض قلبها بالحب والحنان، الأم التي لطالما سهرت من أجله، ضحكت لفرحه وبكت لحزنه، كانت أشد توترًا منه عند امتحانه وظهور نتيجته، كانت سندًا له، فشعوره بنفسه كان جزءًا من شعورها به، وكأنما تعلم ما لا يعلمه عن نفسه.
تذكر حين كان يرجع إلى بيته بعد يوم دراسي مزدحم، فأول ما ينطق به عند دخوله البيت: «ماما»، تلك الكلمة التي ترددت على لسانه، حتى أنه أحيانًا لم يعرف لها معنى سوى أنها كل معنى، يجول بخاطره عند فرحه وعند حزنه.
سارت الجنازة في صمت يقطعه البكاء أحيانًا، حتى

وصلت إلى المقابر، بدأت لحظة الكلام المشوب بالبكاء والعويل؛ فنادى أمجد أمه وكأنه يحذرها، ها قد اقتربت النهاية استيقظي، أنتِ غالية وقد بدت محبتك عندنا، انهضي الوقت ينفد والقبر يُفتح، ولم يتبق سوى وضعك في فمه حتى يلتهمك، قد بدا تمثيلك في غاية الاتقان؛ فكانت مسرحية حزينة بتمثيل يشبه الحقيقة، انهضي وسوف أُصفق لكِ، ولن أُعاتبك على هذا الدور الذي اتخذتيه، أمي هل هُنت عليكِ، هل هانت عليكِ دموعي وتكبد أحشائي! سامحك الله يا أمي، ها قد قُفل القبر وأُسدل الستار على آخر مشهد حزين في قصة، كُتبت في ساعات وأخذت من العمر سنين، ومن القلب كل فرحة ووضعت مكانها حجر الحزن، يُرس فوقه حجر تلو الآخر، لم تكن أمي فحسب بل كانت كل شيء؛ فالموت لم يأخذ روحًا بل أخذ أكثر من روح.

رجعت الجموع بقلوب أقل ثقلًا؛ وكأنما انتهوا من واجب أو امتحان في توطيد العلاقات، انتهى سعيهم بمشكور، بينما أمجد ووالده فكان سعيهما يأخذ موضع غير موضع العامة، وقلب ليس كقلوب من حولهما؛ فهي الأم للابن والزوجة للأب.

جذب والد أمجد ابنه باتجاهه يحتضنه، ثم مسح بيده على وجنتيه وقال له بصوت هادئ:

«قدر الله وما شاء فعل، الله رحيم، أنت عاوزها تعيش

بتتعذب بالمرض».
نظر أمجد إليه وعلى وجهه علامات الدهشة والكثير من علامات الاستفهام.
فتابع الأب حديثه قائلًا:
- «ما تستغربش، ساعات الموت بيبقى راحة، لو عليّ أنا كنت مستعد أخدمها العمر كله، بس مشيئة ربنا يا ابني، رب...»
قاطع الابن حديث أبيه بقوله:
- «كنت بتحبها؟»
اندهش الأب من السؤال، ولكنه تمالك نفسه فعرف أن هذا السؤال ما هو إلا مدخل لسؤال آخر.
- «أنت شايف غير كده! أنا كنت بحبها أكتر من أي حد؛ ولو كان الموت فيه اختيار كنت اخترت نفسي».
- «ازاي تحب حد وتفرح إنه سابك وبِعد؟ خلاص مش هتشوفه تاني».
- «أنت ما تعرفش الحب يعني إيه، الحب ليه ألف وجه ومعنى؛ ساعات بنبعد عشان بنحب، وساعات بنفرح بالموت عشان بنحب، أنا مش هاكدب عليك؛ أنا زعلان أكتر منك، وما فرحتش بموتها، بس لو فكرت شوية هتلاقي إن أي حاجة خير من عند ربنا؛ ربنا بيحبك، وبيحبني، وبيحب والدتك الله يرحمها.
الحب أنك تضحي بسعادتك عشان اللي بتحبه، كلنا

هنموت، أوقات كتير بحسد والدتك إنها خلاص عدت أصعب مرحلة، عدت المرض، وألم الموت، عدت الخوف والأمل واليأس، ووصلت لرحمة ربنا؛ وصلت عشان تشوف قيمة صبرها، واحنا كمان لازم نصبر عشان نشوف قيمة صبرنا في النهاية».

الفصل السادس

تناولت مي الغداء رفقة والديها وأختها الصغرى، وعندما فرغت من تناوله صعدت إلى الطابق العلوي؛ لتفتح غرفتها وتنطلق إلى حيث مقصدها، وكأنما جاءتها الخاطرة، فاعتدلت في جلستها إلى مكتبها الخشبي ذي اللون البني المحروق، ويدها تعبث بين أدراجه، حتى اهتدت إلى ضالتها؛ فأخرجت حقيبة سوداء، انتزعت من بين طياتها اللاب الخاص بها، ثم فتحت الفيس بوك ووضعت المؤشر عند الكتابة، ترددت في كلماتها؛ تكتبها ثم تذيلها حتى انتهت إلى كتابة:

«إذا كان أقرب صديق لك كاذب، ومخادع فهل تحتفظ بعلاقتك به؟!»

تتكئ سارة على جانبها الأيمن، وركبتيها تكاد تلامس صدرها، ينسدل عليها غطاء يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها، كانت تعبث بهاتفها الخاص لتقع عيناها

على المنشور الخاص بصديقتها مي؛ شعرت بالحزن قليلًا لظن صديقتها بها، لكنها ضغطت لايك، وكأنها ليست الصديقة المقصودة.
وصل إشعار بعمل لايك لمي على منشورها من قِبل صديقتها سارة؛ فاعتبرتها مي استهانة بكلامها ولا مبالاة بما فعلته اليوم؛ فقررت حظرها من على الفيس.
علمت سارة بما فعلته صديقتها الوحيدة لتشعر حينها بالحزن الشديد؛ حاولت التهوين على نفسها بهم أكبر من هم صديقتها، اتجهت ناحية الباب لتنظر خلفه؛ فلما اطمأن إليها الحال بخلو الجو؛ أغلقت الباب ثم أخرجت الأشعة من داخل حقيبة يدها؛ وبدأت في النظر إليها تحت لمبة حجرتها ذات النور الأبيض الفلورسنت، كانت ترفعها إلى الأعلى بيد مرتجفة، وقلب ضعيف، ودموع توشك على الانهمار.
يضرب جرس هاتفها بشدة؛ لتترك الأشعة على الفراش ثم تتجه ناحيته محاولة اصطناع نبرة لا تعبر عن حالتها فتقول:
- «ألو، ازيك يا زينة؟»
ترد عليها زينة بنبرة حزن:
- «الحمد لله كويسة، المهم أنتِ ليه ما قولتيش لمي على كل حاجة؟»
تتوقف سارة للحظات ثم تقول:

- «حاولت النهارده الصبح، بس ربنا مأردش إنها تعرف، أوعديني ما تقوليش حاجة ليها».
- «حاضر يا بنتي بس...»
تسمع سارة صوت خطوات تقترب من باب حجرتها فتقول مقاطعة حديث زينة:
- «أنا هاقفل دلوقت، هابقى أكلمك بعدين».
قبل أن تفتح الأم الباب أمسكت سارة بطرف البطانية ثم ألقتها لتغشى ما تحتها من أشعة وتحاليل.
دخلت الأم بعد أن سمعت من ابنتها كلمة تفضل؛ لتقول:
- «إيه يا سارة يا حبيبتي، مش هتاكلي!»
- «أنا جاية وراكِ يا ماما، هاخلص حاجة بس».
- «طيب بسرعة يا حبيبتي، أنا هسخن الأكل على ما تيجي».
خرجت الأم من الحجرة إلى حيث أرادت؛ فبدأت سارة بتجميع الأشعة، وهي تعض على نواجذها وتقول في قرارة نفسها: «لو لم تأت معي زينة في ذلك اليوم، ما كان لها أن تعرف شيء، يا ليت أحد لا يعرف عني شيء، فأكن بأفضل حال حينها».
الفصل السابع
اتجهنا نحن الثلاثة إلى منزل أمجد، بعد العديد من محاولات الاتصالات غير المجدية التي قمنا بها.

عند مدخل الشارع، وجدنا تلك الفّراشة التي تقام عند الأفراح والمآتم، ولكن علمنا سريعًا أنه مأتم وليس فرحًا؛ بدا الحزن والصمت مخيمًا على الشارع، مع انبعاث صوت ضعيف من إحدى الشقق، كان صوت مسجل للشيخ عبد الباسط يقرأ القرآن.
انكب محمد على أذن إبراهيم ليطن فيها قائلًا:
- «هو أيه ده؟!»
يرد إبراهيم متهكمًا:
- «زي ما أنت شايف، عزاء».
- «ما اقصدش، أقصد عزاء مين؟»
- «وأنا أعرف منين يا محمد! ما تقول كلام معقول، أنا لسه داخل معاك الشارع».
- «أنا قلقان يا أخي، شكله يخص أمجد».
- «ربنا يستر، أنا قلقان أنا كمان».
أقطع حديثهما الجانبي بقول:
- «أنتم بتتكلموا في ايه! يلا وصلنا».
ارتقينا السلم؛ والصوت يقترب أكثر فأكثر، حتى تبين أن الصوت منبعث من شقه أمجد.
لم يكن هناك حاجة لطرق الباب فقد كان مفتوح على مصرعيه، يجلس الأب على أحد الكراسي، واضعًا قبضة يده أسفل إحدى وجنتيه، والدموع تتلألأ في عينيه.
ترددنا نحن الثلاثة في النداء لكني أتشجع وأقول بصوت

خفيض:
- «عمي؟»
ينظر إلينا والد أمجد ثم إلى الجهة الأخرى؛ ليمحي تلك الدمعة التي تراوضه، والتي تأبى نفسه أن تسقطها، فقد أمسكها عن ابنه وعمن حوله؛ حتى لا يُظهر ضعفه، أو يُبدي أحد عليه عطفه؛ فهو ليس في حاجة إلى ذلك.
ينهض والد أمجد من مكانه ليتجه ناحيتنا؛ فيقوم بالسلام علينا واحد تلو الآخر، ينتهي آخر سلام عندي؛ فسألته قائلًا:
- «أمجد فين يا عمي؟ وإيه إلى حصل؟»
ينظر إلينا نظرة فاترة، وهو في غنى عن شرح تلك المعضلة فيقول بهدوء:
- «اتفضلوا، أمجد في أوضته، هو يحكي لكم على كل حاجة».
بعد طرق باب حجرة أمجد مرتين فُتح الباب فمرقنا نحن الثلاثة إلى الداخل ثم أوصدنا الباب خلفنا.
في العزاء أقف بجوار أمجد ومن جانبي يقف إبراهيم ومحمد، مرت ساعات حتى صدق الشيخ وانتهى العزاء، التفت إلينا والد أمجد؛ ليجد التعب والإرهاق، قد بدا على ملامحنا؛ اتجه إلينا بخطوات ممدودة، حتى أصبح عند رأسنا فربت على مناكبنا ثم قال:
- «أُدخلوا كلوا حاجة يا شباب، أنتم واقفين من الصبح».

أجيبه بامتنان:
- «شكرًا يا عمي احنا مالناش نفس».
- «على الأقل يا ابني تفتحوا نفس صاحبكم».
أومئ برأسي للموافقة، ثم نصطحب أمجد الذي كان في دنيا غير الدنيا، فنصعد به إلى شقته وهو لا يدري شيء.

الفصل الثامن

تجلس مي في حجرتها وعلى قسماتها الحزن والغضب، بعد العديد من محاولات الاتصال التي قامت بها للتواصل مع رامي، ولكن دون جدوى؛ فأرسلت إليه ثلاث رسائل على فترات متباعدة، لم يأتها الرد على اتصالاتها أو رسائلها الثلاثة.

أيقنت أن هناك شاغل شغله عن الاتصال بها، كما وعدها ولكن لم تلتمس له عذرًا؛ فأي شاغل أهم عنده منها، وإن كان هناك ما يشغله أيعقل أن يتركها دون إرسال رسالة واحدة أو اتصال يبلغها عن شاغله! لعلها تلتمس له عذرًا، أخذ الغضب مأخذه منها فلم تتحمل أن تجلس بمفردها، لتذهب متجهة صوب حجرة أختها الصغرى دلال، والتي تصغرها بثلاث سنوات.

تطرق مي باب حجرة أختها بعد أن أدركت أنها ما تزال مستيقظة، فنور الغرفة ينبجس من أسفل بابها، سرعان ما جاءها الرد سريعًا: «تفضل». دخلت مي الحجرة بذلك الوجه الكئيب الذي لا تعرفه الفتاة الصغيرة إلا في مشادتها معها، فتسألها باندهاش كبير:

- «ما لك يا مي؟!»

تقترب مي من فراش أختها ممسكة بيدها اليسرى الهاتف، ثم تتكئ على يدها اليمنى وهي تجلس بجوار أختها، تعيد الفتاة الصغيرة سؤالها مرة أخرى، ولكن بحماسة أشد من سابقتها.

تجيبها مي بوجه عابس مقطب:

- «مخنوقة شوية».

- «ليه؟»

- «حصل أكتر من موقف وحش النهارده».

- «تعرفي يا مي أنتِ طيبة أوي، بس عيبك أنك ما

بتُعذريش حد؛ مش كل موقف يحصل يجي في بالك السوء، لازم يكون عندك حسن نية».
«إيه الكلام ده يا دلال، أنتِ جاية تديني درس! أنا ماشية».
تنهض مي من مكانها متجهة إلى خارج الغرفة، متجاهلة نداءات أختها ومحاولات إرجاعها إلى الغرفة مرة أخرى.
****

تنهض سارة من الفراش بُعيد الحادية عشر مساءً، تتجه صوب حوض المياه فتشمر عن ساعديها، ثم شرعت في الوضوء، وعندما انتهت عادت إلى حجرتها مرة أخرى وهي تجفف وجهها وساعديها.
بدأت صلاتها بركعتين، تطيل فيهما الركوع والسجود والدعاء، وعندما فرغت من صلاتها فتحت المصحف بيد مرتجفة، ثم بدأت بترتيل آيات الله، كانت تتوقف عند بعض الآيات، وكأن هذه الآية قد لامست قلبها من الداخل فيقشعر بدنها لها.
مرت ساعة ونصف حتى صدقت الفتاة، وقبلت المصحف ثم وضعته في مكانه على المصحفة، رفعت يدها للدعاء، فلم تستطع إغلاق ينابيع دموعها؛ فأخذت تبكي بكاءً حارًا وكلما أكثرت الدعاء أكثرت البكاء، حتى سمعت صوت والدتها تقترب من بابها، وقبل أن يُفتح الباب أحنت رأسها ساجدة حتى لا تراها أمها بعينيها الباكيتين.

نظرت إليها أمها فوجدتها مستغرقة في الصلاة، خرجت الأم ثم أغلقت الباب خلفها لتتركها وتذهب، وكأن الفتاة لم تتخذ هذه الحيلة حتى لا تراها أمها؛ فأكملت سجودها ودعائها حتى ظنت بداخلها أنها تصلي، ونسيت أنها حيلة؛ لمجرد أنها كانت خالصة مخلصة في دعائها.

الفصل التاسع

في طريق عودتي إلى المنزل، أمر بإحدى الطرقات المظلمة والتي ينبعث عند مفترقها نور ضعيف جدًا، تكاد لا ترى راحة يدك فيه، هدوء تام لا يقطعه سوى حركة ذوات

الأربع من الكلاب والقطط.
أزفر أنفاس مثقلة؛ يجثم عليّ التعب والخوف والتوتر، فكأنما أشعر بنفسي في هذه الدنيا، وكأنما أشعر أنني إنسان يتحرك، فقد تبددت فكرة إنسانيتي منذ الصغر، منذ أن تعودت عليها، أشعر بأنفاسي، بجسدي الذي ينتظره الموت؛ فأنا إنسان ويجب عليّ أن أموت يومًا ما، فأي موتة تنتظرني! ما أصعب ذلك السؤال الذي يرمي بي إلى بحر لُجي، وأنا لا أعرف العوم قط، أسير في الطريق، وأنا أرنو إلى النجوم التي تزين السماء، والتي تضيف إلى الليل جمالًا وعلامة غابت عنا، على الرغم من أنها أمام أعيننا كل ليلة لمن يشعر بها داخل نفسه، لا لمن يراها بعينه فقط.
أشعر بنسائم الهواء تهب على صفحة وجهي الدائري، ورائحة منبعثة من شجرة الياسمين القابعة خلف أسوار الفلل التي أمر بها.
ما هذا الشعور الذي يعتريني! أحقًا نصير ترابًا بعد أن كنا نمشي، ونأكل، ونركل، ما لهذه الدنيا الغريبة التي لا تبيح لنا أسرارها! هل يوجد كائنات غيرنا؟ هل يوجد كوكب آخر يعيش عليه أقراننا؟ تخيل لو أننا نموت في الأرض وتصعد أرواحنا إلى السماء، ثم تهبط إلى كوكب آخر، وتعيش عليه فتجتمع أرواح الموتى معًا حتى يبعثهم الله.

ماذا يحدث إذا صعدنا إلى هذا الكوكب؟ أنراهم حقًا أم أنها خرافة من خرافات آخر الليل! التي ترهق تفكيري، وتبدد ما تبقى من عقلي.
أمرق إلى داخل حجرتي، بعد أن أجتاز باب الشقة دون أن أصدر صوتًا البتة، هدوء المكان أشعرني أنني جئت في ساعة متأخرة جدًا، لكن انشغالي بالتفكير جعلني لا أنظر إلى الساعة في هاتفي.
أبدل ملابسي على عُجالة من أمري؛ وكأنني أخاف أن أنام واقفًا وأنا أبدلها، أتجه إلى فراشي فأندس تحت غطائه، ثم أنظر إلى هاتفي، ما هذا كله، ٤٢ مكالمة فائتة لم يتم الرد عليها، وثلاثة رسائل جميعها من مي.
بدأت بأول رسالة،
«أنت فين؟ ما بتردش ليه؟!»
بينما كانت الثانية: «للدرجة دي صحابك أهم مني؟»
وكانت الثالثة والأخيرة: «خليك فاكر الموقف ده، ولو مش عاوزني في حياتك قل لي من دلوقت».
لا أرد على أي من هذه الرسائل الثلاثة، أو الاتصال لشرح الموقف، أشعر بالتعب الشديد؛ أريد أن أذهب إلى رحلة نوم عميقة، لعلها تستغرق ثلاثة أيام من شدة التعب، قبل النوم أترك هاتفي على وضعه صامتًا؛ حتى لا يزعجني أحد أثناء نومي، تقع عيني على الساعة، الثالثة صباحًا وكان هذا آخر شيء أنظر إليه ولا أعلم ماذا حدث!

«رامي، رامي؟»
أجيبها بفم مُثقل:
- «إيه يا ماما؟»
«أنت هتفضل نايم كده طول النهار!»
- «معلش يا ماما، سبيني شوية كمان».
- «المغرب بيأذن يا ابني، أصحى بقى».
تذهب أمي وتتركني بعد هذه الجملة، أتمطى وعيناي ما تزال مغلقة، وما هي إلا دقائق حتى استيقظت من نومي، أتجه إلى دورة المياه فأغتسل، حتى أشعر بما يدور حولي؛ تتحسن حالتي بعد ذلك ثم أذهب إلى أمي فأطلب منها أن تحضر لي الطعام قبل أن أصل إليها وأراها.
تجيبني بصوتها الحنون:
- «حاضر يا حبيبي».
ثم تضيف قائلة: «اتأخرت ليه امبارح؟»
أشعر أنه ليس من الجيد قول أن والدة أمجد قد تُوفيت، أمجد لم يكن ذا علاقة قوية بعائلتي، وأمي لا تعرف أحد من عائلته.
- «ساكت ليه؟»
- «لا مفيش، كنت عند واحد صاحبي».
أتناول الطعام وأنا أفكر فيما حدث أمس.
- «إيه يا رامي ما بتردش ليه؟»
- «معلش يا ماما، مشغول شوية».

- «ممكن أعرف في إيه؟»
- «مفيش حاجة يا ماما، بفكر بس في مستقبلي لما أتخرج».
- «اتخرج أنت بس وسيب الباقي على ربنا؛ اللي عاوزه ربنا هيكون».
- «إن شاء الله يا ماما، أنا خارج عاوزة حاجة؟»
- «شكرًا يا حبيبي، بس حاول ماتتأخرش».
أمرق إلى داخل غرفتي؛ وأقوم بتبديل ملابسي، وقبل الخروج أنظر إلى شاشة الهاتف: «عشرة مكالمات لم يتم الرد عليها»، جميعهم من مي، بالإضافة إلى رسالة أيضًا؛ أقوم بفتحها وأقرأها.
«هي بقت كده! ماشي يا رامي».
لا أستطيع الاتصال بها؛ الساعة السابعة مساءً؛ ويجب عليّ أن أصل إلى منزل أمجد في أقرب وقت.

الفصل العاشر

بعد التحول الرهيب في حياة سارة والذي تبعه بُعد أقرب أصدقائها عنها؛ قررت أن تلتقي بصحبة أخرى غير التي عرفتها من قبل؛ فقررت أن تجعل حياتها غير الحياة التي نشأت عليها.

أمسكت بهاتفها، ثم أرسلت رسالة على الواتس آب إلى عائشة، زميلتها في الجامعة.

كان مضمون تلك الرسالة، أنها تريد مقابلتها في أقرب وقت.

ترد عليها عائشة برسالة أخرى مرحبة بطلبها وتحدد لها اللقاء الذي يجمعهما، فكان بعد صلاة العشاء في مسجد الرحمة.

كان اللقاء حار بينهما وخاصة عائشة، التي تمنت أن تكون صديقة مقربة لسارة، ابتسمت عائشة لسارة ثم أمسكت بيدها، وسارت بها بعض الخطوات داخل المسجد، ثم جلست مسندة ظهرها للحائط.

تقول وما تزال ترتسم على شفتيها ابتسامتها المعهودة:

- «عاملة إيه يا سارة؟»

تجيبها سارة محاولة مواراة حزنها المنبعث من مقلتيها:

- «الحمد لله يا عائشة، كنت عاوزة أطلب منك طلب».

- «أطلبي إلى أنتِ عاوزاه يا سارة».

- «كنت عاوزة أحفظ قرآن معاكي، ممكن؟»
تهللت أسارير عائشة، ثم قالت بثغرٍ مبتسم:
- «ربنا يحفظك يا سارة، إن شاء اللهً ربنا يثبتك وتكملي في طريقه».
تدمع عين سارة لسماع دعاء صديقتها؛ فتتجه إليها عائشة وقد تبدلت صفحة وجهها من الابتسام، والفرح إلى الخوف، والدهشة فتقول عائشة متسائلة:
- «ما لك يا سارة؟ بتعيطي ليه؟»
مسحت سارة دموعها بيدها، ثم قالت بصوت مبحوح:
- «حاسة إني قريبة من ربنا، وإني ماشية في الطريق الصح».
عادت عائشة إلى ابتسامتها مرة أخرى، وقالت وهي تضع يدها على منكب صديقتها:
- «ربنا بيحبك وألهمك الطريق الصحيح اللي تمشي فيه، المهم الثبات، أدعي دايمًا ربنا يثبتك».
- «يا رب».
تسود بعض لحظات الصمت؛ حتى يقطع ذلك الصمت الرهيب صوت سارة قائلة:
- «طيب هنبدأ أمتى؟»
فتجيبها عائشة، وهي تربت على يديها:
- «الوقت اللي تحبيه، بس فيه حاجة ممكن أقول لك عليها وماتزعليش؟»

- «لا أبدًا يا عائشة، قولي».
- «بصراحة هيبقى شكلك أحلى لو غيرتي ستايل لبسك؛ يعني مثلا لو لبستي خمار، وجيب وكده، ولا إيه رأيك؟»
- «أنا كنت عاوزة فعلًا أغير ستايل لبسي من زمان».
- «خلاص يا ستي، هاجي معاكي نشتري كام خمار وكام جيبة، وعلى فكرة شكلك هيبقى حلو أوي في الخمار الماليزي، وأنا حاسة أنه هيعجبك».
- «ماشي، بس أنا عاوزة أبدأ على طول في الحفظ؛ يا ريت النهارده قبل بكره».
- «ما تقلقيش على موضوع الحفظ؛ الحاجة أم قاسم هتفرح بيكِ جدًا، هكلمها ونروح لها بكره لو حابة، وأنا تشجيعًا مني يا ستي هحفظ معاكِ من الأول، وأهي تبقى مراجعة ليا».

ابتسمت سارة وقالت بسعادة:

- «إن شاء الله هاسبقك في الحفظ؛ أنا عندي دافع كبير إني أحفظ القرآن بسرعة».

تبتسم إليها عائشة ابتسامة تضاهي ابتسامتها، وتقول:

- «يا ريت، على الأقل ألقى حد يشجعني إني أحفظ عدد آيات أكبر».
- «خلاص اتفقنا يا عائشة».
- «اتفقنا؛ بكره إن شاء الله هعدي عليكِ قبل العصر نشتري الخمار، وبعد العصر الحفظ إن شاء الله».

الفصل الحادي عشر

أصل إلى منزل أمجد، فأجد محمد وإبراهيم قد هبطا السلم، أعلم حينها أن زيارتهما قد انتهت، وأنني جئت متأخرًا بالفعل، لكنني أصطنع الدهشة واتجه بناظري إليهما فأُحدثهما متسائلًا:

- «إيه رايحين فين؟»

يرد إبراهيم وعلامات الأرق تزين وجهه القمحي:

- «ماشين خلاص».

- «بدري كده! طيب استنوا ونبقى نمشي مع بعض».

- «يا ابني بعت لك رسالة على الفيس إن أنا ومحمد هنيجي الساعة ٤ لأمجد، على العموم أدخل أقعد معه شوية، واحنا هنروح بقالنا كتير قاعدين معاه».

- «خلاص روحوا أنتم، وأنا هدخل أقعد معاه».

يذهب إبراهيم ومحمد، فأرتقي السلم حتى أصل إلى باب شقة أمجد، أقف على الباب لا أجد ما أقوله لمواساة صديقي، أتشجع وأطرق الباب طرقات خفيفة، حتى أرى أمجد أمامي بعينه الذابلة ووجهه الباهت.

أسأله وأنا أمد يدي إليه للسلام:

- «عامل إيه يا أمجد؟»
يجذبني للداخل وهو يقول بصوته المُتحشرج:
- «الحمد لله، اتفضل يا رامي».
أضيف إلى سؤالي سؤال تقليديًا:
- «وعمي عامل إيه؟»
- «مش عارف؛ ما بشفوش بيعيط، دايمًا ساكت، أنا خايف عليه ومش عارف أخرجه من اللي هو فيه».
- «طيب وأنت يا أمجد هتخرج من اللي أنت فيه ازاي؟»
- «أنا بقيت كويس الحمد لله، أنا عاوز أطلب منكم طلب».
- «أطلب اللي أنت عاوزه يا أمجد!»
- «ممكن ماتجوليش تاني؛ بحس إني أحسن وأنا قاعد لوحدي».
- «أنت بتقول إيه بس يا أمجد! ما ينفعش نسيبك لوحدك».
- «أرجوك يا رامي، أسمع كلامي».
أشعر بالحيرة من طلبه الغريب وغير المتوقع، لا أجد ما أقوله له سوى الموافقة على كلامه.
- «خلاص موافق، بس هنجيلك بكره وبعد كده مش هنيجي خالص».
- «موافق».
يمر من الوقت ساعتان، حتى أحسست أن أمجد يشعر

بالإرهاق، ويحتاج إلى النوم، أقوم على الفور بتوديعه ثم أغادر.
أذهب إلى منزلي الساعة الحادية عشر؛ لا أستطيع الاتصال بمي في هذا التوقيت، أقوم بفتح الفيس بوك لكي أبعث إليها برسالة؛ لعلها تكون مستيقظة أو تقرأ رسالتي غدًا على أقل تقدير.
أجد الكثير من الرسائل المرسلة إليّ، أتجاهلها وأنظر إلى رسالة مي.
أقوم بفتحها وأبدأ في القراءة.
«أنت فاكر إن بكده أنا هاموت عليك، أعتبر كل إلى بينا انتهى، حتى لو كان عندك ألف سبب؛ كان أقل حاجة تبعت لي رسالة أو تكلمني دقيقة حتى، أنا أخر حاجة في حياتك عشان كده مش عاوزاك جوا حياتي».
أنهي قرأت رسالتها، وأنا أشعر بالحزن الشديد لعدم إعطائي عذرًا، أكتب إليها ما حدث في اليومين السابقين وأنهي الرسالة بكلمة أحبك، ثم أترك كل شيء وأذهب للنوم.
لا أدخل في رحلة النوم سريعًا؛ فهناك من الأحداث الكثيرة التي طرحها عقلي؛ فشغلته عن راحته في هذا التوقيت، معظمها كانت أفكار سيئة، يمر الكثير من الوقت حتى يغلبني النوم.
أستيقظ من نومي العاشرة صباحًا، أذهب إلى صنبور

المياه؛ فأقوم بغسل وجهي وتنشيفه، وبعد ذلك أفتح الفيس بوك سريعًا حتى يتسنى لي معرفة ردها على رسالتي.
أشعر بالحزن لتجاهلها الرد؛ أرى رسالتي قد شُوهدت ولم يتم الرد عليها، أحاول الاتصال بها وهي لا تجيب، فأقوم على الفور بتبديل ملابسي، وأذهب إلى الجامعة، فمن الممكن أن تكون في محاضرة ولم تستطع الرد على الهاتف، أصل إلى الجامعة فأتجه إلى قاعة المحاضرات مباشرةً.
أقف قليلًا عند الباب الضخم لمدخل الطلاب لحين انتهاء المحاضرة، دقائق حتى انتهت المحاضرة فأذهب للداخل، أتغلغل بين الطلاب باحثًا عن مي حتى وقعت عيني بعينها.
تنظر إليّ ثم إلى الجهة الأخرى كأنها لم ترنِ؛ أحدث نفسي بأنني لن أجعلها تذهب وهي غاضبة منِي؛ فأتجه إليها حتى أقف عند رأسها وأحدثها بنبرة حانية:
- «مي عاملة إيه؟»
تعيد النظر إليّ ثم إلى حقيبة يدها التي كانت تعبث بداخلها، فتقول وما تزال يدها تعبث داخل حقيبتها:
- «أنت لسه فاكرني!»
- «ما تكبريش الموضوع، اليومين إلى فاتوا كانوا صعبين أوي ولازم تقدري كده».

تنظر إليّ وقد تبدلت لمعة عينيها التي أعرفها جيدًا، عند الصفاء فتقول:
- «أنا مقدرة ومبسوطة جدًا إنك بتقف جنب صحابك، بس زعلانة عشان كان لازم تقولي حاجة زي دي؛ أنا كنت قلقانة عليك».
لم يخطئ حدسي في تلك اللمعة؛ فتلك هي مرحلة الصفاء.
- «عارف يا حبيبتي، ما تزعليش بقى، خلاص تعالي أعزمك على حاجة من معاكي».
تبتسم قائلة:
- «لا، شكرًا».
- «خلاص بهزر معاكِ، هعزمك من على حسابي».
- «مش هينفع برضو؛ أنا متأخرة أوي ولازم أروح».
- «هي نص ساعة بس».
- «نص ساعة وهامشي».
- «اتفقنا اختاري مكان، بس ما تطلبيش حاجة غالية».
- «هطلب كباية ماية خلاص».
- «بس تكون من الحنفية».
- «أنت معفن أوي».
نتبادل الضحكات فيما بيننا، ثم نتجه إلى أحد المطاعم، أشعر بالسعادة بسبب رجوع علاقتي بمي إلى سابق عهدها، ما أجمل أن تكون على وفاق مع شريك روحك؛ فتلك تعطيك الدافعة للأمام، لكن الحياة لا تسير على

أهوائنا.

الفصل الثاني عشر

تجلس سارة تحفظ في سورة البقرة، حتى اقترب موعد لقائها بعائشة؛ فصدقت ونهضت من مكانها لتغير ملابسها وهي تردد ما حفظته.

خرجت سارة من المنزل وهي ما تزال تردد ما حفظته، حتى التقت بعائشة عند مكتبة التقوى.

التقت أيديهما للسلام مع الابتسام، ثم همت عائشة بجذب سارة من يدها إلى داخل المكتبة.

في مكتبة التقوى، كانت تجلس الحاجة أم محمود صاحبة المكتبة وعن يمينها فتاة دون العشرين، وعن يسارها فتاة في نفس عمر الفتاة الأولى، الفتاة التي تجلس عن يسارها

كانت تختبر نفسها في الحفظ، بينما الفتاة الثانية كانت تنظر في مصحفها للمراجعة بشكل سريع؛ فدورها في التسميع قد اقترب، قطع ذلك كله دخول عائشة بصحبة سارة؛ لتنهض الحاجة أم محمود من مكانها، وعلى وجهها ابتسامة الشوق؛ فانكبت على عائشة تقبلها ومن بعدها سارة، ثم قالت معاتبة عائشة:

- «كده! طول المدة دي ما تسأليش عليا!»

تنظر إليها عائشة مبتسمة، ثم تقول معتذرة:

- «كنت بمتحن ميد ترم، باقي مادة ونخلص إن شاء الله».

- «على خير إن شاء الله، كلها كام شهر وتتخرجي».

- «أدعي لي أنتِ بس وإن شاء الله خير».

- «ربنا معاكِ يا بنتي، أنا آسفة، نسيت أسألك مين العسل دي؟»

- «دي سارة صاحبتي في الجامعة، وشكلها هتجيلك تقعد معاكِ كتير إن شاء الله».

- «تنور، يا ريت؛ بتمنا أشوف عيالي على طول وما يقطعوش بيا».

تبتسم سارة وتشكرها على حسن استقبالها.

تحولت عائشة من مكانها إلى الداخل، وراء الفاترينة الزجاجية، فكأنها صاحبة المحل وتعلم عنه كل شيء؛ لتعود الحاجة أم محمود إلى ما كانت تفعله، وقفت

عائشة خلف الفاترينة؛ تخرج بعض الأحجبة المغلفة، وعندما انتهت من إخراج كافة الأحجبة، بدأت بعرض ألوانها على صديقتها؛ لتختار بينهم.
وقع اختيار سارة على اللونين النبيتي والكحلي؛ بسبب ملائمتهما مع بعض الجيب والدريلات الخاصة بها.
تأهبت الفتاة للحساب ولكن ردعتها الحاجة أم محمود بشدة؛ معللة ذلك أن أول مرة هدية، لم ترض الفتاة بذلك فانتهى النقاش بدفع بعض المال الزهيد، على الرغم من عدم رضا الطرفان بذلك، ولكن اعتبرتاه حل وسط.
خرجت عائشة مبتسمة، بينما حزنت صديقتها بسبب اعتيادها على إعطاء كل ذي حقٍ حقه.
فقالت بضجر:
- «فيها إيه لو كانت خدت فلوسها كاملة!»
ترد عائشة عليها بابتسامة رقيقة قاصدة منها جعل الأمور أبسط من ذلك:
- «أنتِ مكبرة الموضوع أوي، عادي طالما قالت لك هدية كان المَفروض تخديها هدية».
- «أنتِ بتهزري أكيد!»
- «لا بتكلم بجد، النبي قبل الهدية».
- «عليه أفضل الصلاة والسلام، بس أنا أتحرج أخد حاجة من غير فلوس».
- «تعرفي إن أول ما التزمت حصل معايا نفس الموقف».

- «بجد وعملتي إيه؟»
- «ولا حاجة، أخدت الحاجة هدية وتصاحبت عليها وبعدها بعشرة أيام جبت لها موبايل هدية، وعلمتها تستخدمه؛ عشان موبيلها كان قديم أوي وبايظ، رفضت في الأول بس أنا قلت لها إن احنا صحاب والمفروض ما تكسفنيش، على فكرة أنا كنت أخدت حجات أغلى من تمن الموبايل، بس هي فرحت أوي إني افتكرتها بحاجة، ده اسمه ازاي يبقى فيه ود بينك وبين الناس».
- «بصراحة ما اعرفش أعمل زيك كده بس هحاول».
- «مش لازم تعملي زي، عيشي بشخصيتك، أنتِ جايز يكون عندك حل أحسن مني، وعلى فكرة إنك تصممي تدفعي ده شيء ما زعلنيش، بالعكس حسيت إنك حقانية ومش عاوزة تاكلي حقوق الناس، يلا بقى عشان العصر هيأذن والحاجة أم قاسم مستنيانا».
اتجهت الفتاتان صوب مسجد الرحمة، فأدتا فريضة الصلاة، ومن بعدها اتجهتا إلى الحاجة أم قاسم، التي رحبت أشد الترحاب بهما وخاصة بسارة، بدأت الجلسة سريعة وعندما اختبرت أم محمود سارة في الحفظ، اندهشت من حفظها، كما اندهشت صديقتها وأحست أنها من الممكن أن تسبقها في الحفظ بالفعل.

الفصل الثالث عشر

عند الأصيل جلس محمد فوق سطح المنزل يراقب أسراب الحمام العائدة إلى أوطانها، وتأصل ذلك المشهد في نفسه منذ الصغر؛ فشعر حينها ولو بجزء من الثانية بأوقات طفولته، امتدت عيناه إلى السطح المقابل فرأى جميلة جارته وزميلته في الجامعة؛ تنشر الثياب فوق السطح، ظل محمد ينظر إليها حتى التقت أعينهما؛ فشعر حينها ببعض الخجل ليحني رأسه مختبئًا خلف السور، ثم أخذ يرفع رأسه رويدًا ليراها دون أن تراه، اكتفى محمد بالنظر إليها منذ الصغر، فأغلب ظنه أنه لن يلقى قبولًا من ناحيتها؛ من هي التي ترضى بواحد مثله! أسمر الوجه سمين البدن، أفطس الأنف، أشعث الشعر، تذكر حين كان يراها بجمال عينيها النجلاوين، وبياض بشرتها المترع بالحمرة، وأرنبة أنفها الصغيرة ووجهها الدائري، كان يرى كل ذلك من جمال منذ الصغر؛ فيهبط إلى حجرته ويقف أمام المرأة ليرى ولو شيئًا جميلًا فيه، فلا يرى سوى وجهه القميء وجسده السمين، مع كل ذلك السوء لم يفقد الشاب أمله في حبها والزواج منها يومًا ما؛ ظل ينظر إليها وقلبه يشتعل حبًا لها، فكر في يوم ما أن يصارحها بحبه؛ فصعد إلى السطح في الثانية ظهرًا وقال وهو ينظر إلى سطحها:

«أنا عارف إن شكلي مش حلو، وإنك ممكن تكوني شيفاني وحش، بس شكلي مش بإيدي، أنا مش شكل رامي ولا في خفة دم إبراهيم، ولا أنا ذكي زي أمجد، بس بحبك من أول يوم شفتك فيه، أوقات كتير تمنيت إني أكون رامي أو إبراهيم أو أمجد، بس في النهاية أنا محمد، ربنا قسم نعمه علينا وجايز يكون عندي ميزة أنتِ وأنا مش شايفنها؛ ممكن تكون ميزتي إني بحبك، إني أَخاف عليكِ إني أفضل عايش عمري كله ليكِ».

أخذت تلك الكلمات منه وقتًا طويلًا جدًا؛ حتى يقولها بذلك الثبات الانفعالي والشجاعة التي تجعله لا يتلعثم في كلماته، حتى جاء موعد ظهورها؛ فحبس أنفاسه حتى لا تسمعها وأحنى رأسه حتى لا تراه، وحاول جاهدًا أن يردد كلماته في صمت، حتى يقولها دون تخبط، كلما رفع رأسه هربت الكلمات منه، يا له من موقف لن ينساه طيلة حياته، لن ينسى أنه اكتسب عيب يضاف إلى مساوئه؛ بأنه غير لبق في الكلام، ولكن حدثته نفسه ألا يدع الفرصة تهرب منه، ولا يجعل ذلك العيب يلتصق به؛ رفع رأسه في شجاعة، ثم أخذ نفسًا عميقًا وزفره بهدوء، مصوبًا ناظريه إليها؛ فانشغل بجمالها وكأنما نسيّ أنه ينظر إليها، التفتت الفتاة إليه ثم أشارت بيدها وتمتمت ببعض الكلمات التي انتشلته من غيبوبته؛ فوجدها تلقي إليه السلام، لم يستطع رد سلامها فرجع خطوتين

للخلف، حتى تعثرت قدماه وهوى حينها على وجهه من شدة ارتباكه، نهض من على الأرض وأخذ يزيل الثرى الذي علق بملابسه، ثم نظر إليها وما تزال يديه تنفض الثرى عنه؛ فوجدها تضحك؛ بادلها ضحكاتها بابتسامة منكسرة توحي بالشرخ الذي أحدثه الموقف داخله، رجع مسرعًا إلى حجرته وأغلق الباب على نفسه، ووقف أمام المرآة التي عكست حمرة خجله وارتباكه؛ فأخذ يحدث نفسه بصوت مرتفع:

«إيه إلى أنا عملته ده، أول مرة أعرف إني خجول، وغبي، وما بعرفش أتكلم أو أتصرف في أي موقف، أنا بطل بس في خيالاتي وأحلامي؛ لكن أنا أقل من الصرصار في الواقع، هافضل لحد أمتى كده!

جايز تكون دي جولة وخسرتها ويوم ما أتقدم لها؛ تبقى دي الجولة اللي إن شاء الله تعوضني عن كل جولات الخسارة».

مرت السنون وهذا الأمل يتأصل في نفسه، والحلم يقترب أكثر فأكثر؛ فلم يعد سوى أيام على التخرج وخوض غمار أخر معركة، فلعلها تكون سعيدة ويكون النجاح حليفه.

الفصل الرابع عشر

وقف إبراهيم في حيرة من أمره؛ ينتابه موجة التردد، وهو يقف أمام حجرة والدته يقترب من الباب، ثم يبتعد ظل هكذا حتى استجمع قواه، وصفق الباب بقبضة يده ثم مرق إلى الداخل؛ ليجد والدته تصلي، خرج من الغرفة ثم أغلق الباب خلفه، وانتظر دقائق قليلة حتى سمع صوت والدته تنادي عليه.

دخل إبراهيم الحجرة في توتر فقال بصوت خفيض:

- «ازيك يا ماما؟»

- «الحمد لله، كنت عاوز حاجة يا إبراهيم؟»

تردد إبراهيم في قوله؛ فقال بتوتر:

- «لا... أه».

- «قول يا حبيبي ما لك؛ أنت تعبان؟»

- «لا أبدًا يا ماما، أنا الحمد لله كويس، بس عاوز حضرتك في موضوع كده».

- «قول يا حبيبي؛ أنا سمعاك».

- «أنتِ عارفة يا ماما إني بشتغل من صغري، وعامل دفتر توفير وإن دي أخر سنة ليا في الكلية، وكلها كام شهر وأتخرج».

تبتسم الأم ابتسامة رقيقة تدل على إدراكها للموقف فتقول متسائلة:

- «أنت عاوز تتجوز يا إبراهيم؟»

يرد إبراهيم عليها بابتسامة ولكن كانت ابتسامة خجل:

- «مش بالضبط كده، فيه واحدة بنت حلال معايا في الكلية، كنت بفكر أخطبها سنة أو اتنين، وبعد كده نتجوز».
- «كبرت يا إبراهيم؛ العمر بيعدي بسرعة، واسمها إيه بقى؟»
- «اسمها سارة يا ماما، بنت محترمة جدًا والفترة الأخيرة اتغيرت أوي؛ بس للأحسن طبعًا، لبست خمار وصاحبت واحدة ملتزمة، وأنا قلت أدخل البيت من بابه، قلتي إيه يا ماما؟»
- «بس يا ابني أنت بتقول إن هي ملتزمة وكويسة؛ هترضى بيك ليه!»
- «كده يا ماما! هو أنا شيطان!»
ضحكت الأم بصوتٍ عالٍ ثم قالت:
- «بهزر معاك يا حبيبي، أنا موافقة، وما تخافش، هساعدك في جوازك، وشقتك أهي جاهزة، خد أخوك الكبير وروح زيارة ليهم؛ أعرف موقفهم ناحيتك إيه؟»
- «أنت شايفة كده يا ماما؟»
- «أه أنا شايفة كده، بكره خد أخوك وروح، وأنا هكلمه لما يجي من الشغل؛ ولو وافقوا هكلم أبوك ونروح كلنا».
- «خلاص يا ماما، أنا هكلم خالها؛ وأقول له إني هزورهم بكره إن شاء الله».
كان ينتظر ذلك اليوم على أحر من الجمر، ها هي ساعات

تنقضي فيتم له المراد، كانت ليلة صعبة بالنسبة له؛ فلم يستطع النوم سريعًا من شدة السعادة التي لاحقته؛ حب أكثر من ثلاثة أعوام تقترب نهايته الجميلة.
في اليوم التالي تهيأ إبراهيم للقاء، كان عبد الله أخيه ينظر إليه بابتسامة تفيض من عينيه، وكأنه أبوه وليس أخاه، اتجه عبد الله بسيارته نحو منزلها لمقابلة خال سارة.
بدا التوتر على وجه إبراهيم؛ ولكن تشجيع أخيه جعله أكثر شجاعة، فتجاذبوا أطراف الحديث، الذي دار بين إبراهيم وأخيه وخال سارة، عرف الخال كل ما أراد أن يعرفه عن إبراهيم، ثم جاءت لحظة الوداع؛ ابتسم الخال إليهما، ثم أجابهما بالانتظار لحين عرض الأمر على صاحبة الشأن للبت فيه، على وعد منه بالاتصال بهما وإبلاغهما بردها.
تنظر سارة إلى أمها بضجر ثم تتجه صوب خالها فتصب غضبها المشتعل عليه؛ تقول متسائلة:
- «لما أنت عارف يا خالي بالموضوع ما قولتليش ليه ولا أنا ماليش رأي؟»
يرد الخال عليها برفق:
- «يا سارة يا حبيبتي، أنا قلت لوالدتك امبارح، وأنتِ سمعتي إني قلت له القرار ليكِ في الأول وفي الأخر».
- «بس أنا مش موافقة».

- «ليه بقى؟»
- «مش عاوزة أتجوز دلوقت خالص».
- «فيه حد تاني في حياتك؟»
- «أنت بتقول إيه بس يا خالي! لا طبعًا، بس أنا مش عاوزة أتجوز دلوقت».
- «يا بنتي، البنت في النهاية مالهاش إلا الجواز».
- «ماشي يا خالي، بس مش دلوقت».
- «أنتِ طالع عليكِ عفريت اسمه مش دلوقت، أمال أمتى؟»
- «لما ربنا يأذن هابقى اتجوز».
- «يعني أقول للراجل إيه؟»
- «قل له إني مش موافقة».
- «ده أخر كلامك يا بنتي؟ الرجل شاريكِ».
- «أه يا خالي، ده أخر كلامي».

لم يستطع خال سارة إبلاغ إبراهيم أولًا بقرار الرفض؛ فانتظر اتصاله، ثم أبلغه بأنها ما تزال صغيرة ومتعلقة بوالدتها بعد وفاة والدها، ولا تريد أن تتركها في هذا الوقت، استمع إبراهيم إلى كلامه ثم شكره.

أدرك إبراهيم أنه رفض نهائي ولكن بشكل لائق، كانت تلك الليلة أصعب من ليلته التي بنى فيها أحلامًا ولكن كل شيء انتهى.

سأنتظر حتى أسمع عن خطبتها، لا أعتقد أن سبب

الرفض صحيحًا؛ هناك شخص آخر يستحوذ على قلبها، ولا بد أن يظهر يومًا ما.

الفصل الخامس عشر

في المساء جلست مي تتابع فيلم بصحبة أختها الصغرى، وفي منتصفه جاءها اتصال من رامي، شعرت حينها مي بالارتباك؛ فأغلقت هاتفها وجلست تتابع الفيلم وكأن شيئًا لم يكن، بعد انتهاء الفيلم انتقلت مي إلى حجرتها، وقامت بفتح هاتفها لتستقبل مكالمة من رامي.

- «أيوه معاك».
- «إيه يا مي، موبايلك اتقفل مرة واحدة كده ليه؟»
- «أنا آسفة، أختي كانت قاعدة جنبي، ما حصلش حاجة».
- «أنتِ بتهزري أكيد؛ حطي نفسك مكاني».
- «أنتَ قلقت عليا؟»
- «أنتِ شايفة إيه!»
- «خلَاص أنا آسفة، كنت عاوز إيه بقى؟»
- «بسأل عليكِ عادي».
- «تمام كويسة، الحمد لله».
- «الحمد لله، أقفل يعني؟»

- «لا أنا بطمنك بس».
- «تمام».
- «لما أنت ما عندكش حاجة تقولها بتتصل ليه؟»
- «تصدقي أنا غلطان، كنت عاوز أسمع صوتك».
- «بهزر معاك وأنا كمان، إيه الصوت ده! طيب أقفل دلوقت وأنا هبقى أكلمك تاني».
شعرت مي بحركة غريبة في الخارج؛ فاتجهت صوب الباب تفتحه، وكانت المفاجأة بالنسبة إليها؛ فقد اختلج قلبها وتسارعت أنفاسها، فهمت تعدو تجاه أختها المغشي عليها، ثم نادت بصوت مبحوح:
- «دلال، دلال، فوقي يا حبيبتي، ماما، بابا».
- «دلال، مالك بس ردي عليا؟»
وضعت مي يدها على رقبة أختها؛ لتجس نبضها، ثم أحنت رأسها لتستمع إلى دقات قلبها.
شرعت في النداء عاليًا على والديها؛ حتى أتياها في تلهف وخوف.
جثا الأب على ركبتيه يتفحص ابنته، ثم أخرج هاتفه واتصل بالطبيب.
الصمت العميق الذي ساد المكان لا يشوبه سوى الأنفاس المتسارعة أثناء عمل الطبيب؛ حتى قطع ذلك الصمت صوت الطبيب، بنصحه لوجوب نقلها إلى المستشفى وعمل تحاليل وظائف كبد.

رد الأب متسائلًا بخوف وتلهف:
- «هي عندها إيه يا دكتور؟»
- «لما التحاليل تظهر هنعرف كل حاجة، بس المهم تروح المستشفى في أسرع وقت».
انتقلت الفتاة إلى المشفى وتم سحب عينة دم، نصف ساعة حتى خرجت النتائج وتم عرضها على الطبيب، الذي صح حدسه فكما توقع؛ الفتاة مصابة بفيرس A. وكان هذا واضحًا عليها بسبب الصفرة الواضحة في بياض عينيها ووجهها.
شعر الوالدان بالخوف على ابنتهما، لكن الطبيب طمأنهما أنها ستتلقى العلاج لمدة أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، مع بعض التعليمات، وإن شاء الله ستصبح على ما يرام.
بدأ العلاج مبكرًا بحقنة أعطاها الطبيب لدلال، دقائق حتى استعادت وعيها ولم تجد بجانبها سوى أختها مي.
جالت بعينيها في المكان ثم رجعت ببصرها إلى مي؛ لترى لهفة ترتسم على وجه أختها، وخوفًا تبدل إلى فرح؛ لاستعادة أختها الوعي.
ابتسمت دلال إليها، وقالت متسائلة:
- «أنتِ إلى جبتيني هنا؟»
ردت مي عليها مبتسمة، وهي تمسد لها شعرها الحريري:
- «ألف سلامة عليكِ يا حبيبتي، لا، بابا وماما».
- «هما فين؟»

- «بيدفعوا حساب المستشفى».
- «أنا عندي إيه؟»
- «شوية تعب بسيط، وإن شاء الله تبقي كويسة».
- «ماتخبيش عليا، هموت أمتى؟»
- «أنتِ مجنونة، هو الفيلم أثر عليكِ، بقولك تعب بسيط، تعرفي أنا ما بحبش الموت وبحب الحياة أوي، بس أتمنى إني أموت أول واحدة، قبل ما أشوف حد بحبه بيمشي ويفارقني».
- «بعيد الشر عليكِ، بس مين بقى اللي بتحبيهم؟»
- «أنتم، بابا وماما وأنتِ وسارة و...»
- «إيه سكتي ليه؟»
- «ما عتقدش أن فيه حد تاني».
- «سارة! من كتر حبك فيها عملت لها بلوك وخاصمتيها صح؟»
- «أه من كتر حبي فيها فعلًا».
- «غريبة أوي يا مي، طيب مش هتصالحيها؟»
- «أنا بحب سارة جدًا، وبالرغم إن هي محاولتش تكلمني إلا إني متأكدة إن هي كمان بتحبني جدًا، بس هاستنى شوية؛ عاوزة أعرف معزتي عندها».
- «هي دايمًا اللي كانت بتصالحك، وأنتِ لسه قايلة عارفة إنها بتحبك».
- «الحب حاجة والمعزة حاجة تانية، عاوزة أعرف رصيدي

من المعزة عندها خلص ولا لسه».
- «بس أنتِ اللي غلطانة يا مي!»
- «المهم مش وقت عتاب؛ بابا وماما جايين».
انتهت المحادثة بدخول الوالدين على طفلتيهما بتلهف وفرح؛ فحمدا الله على سلامتها، وطمأنا الفتاة على صحتها وعلى خروجها من المستشفى بعد دقائق.
في اليوم التالي تلقت مي اتصالًا من رامي، الذي حاول طوال الليل الاتصال بها دون جدوى؛ حتى أجابت على اتصاله.
- «إيه يا مي ما لك! إيه إلى حصل؟»
- «أنا آسفة يا رامي، لقيت أختي تعبانة وفاقدة الوعي».
- «طيب هي كويسة؟»
- «أه الحمد لله».
- «الحمد لله، بس كنتِ قلتي لي وطمنتيني».
- «أطمنك ازاي وأنا قاعدة معها طول الليل! قدر الموقف».
- «مقدر، المهم إنها الحمد لله كويسة، هشوفك النهارده؟»
- «مش عارفة؛ ممكن ما اجيش الجامعة».
- «طيب، ابقي طمنيني عليكِ، سلام».
أنهت مي مكالمتها، ثم دخلت إلى حجرة أختها لتجلس معها، حتى لا تشعر بالحزن والوحدة.

الفصل السادس عشر

بمرور الأيام لم يعد الأصدقاء الأربعة يجتمعون، وإن كان قد غاب عنهم أمجد في الفترة الأخيرة منذ أن تُوفيت والدته، لم يتبق سوى خمسة عشر يومًا على امتحانات نهاية العام، أشعر بالتقصير تجاه أصدقائي؛ أجري اتصالًا بمحمد صديقي:

- «ألو، ازيك يا محمد؟ أنت فين؟»

- «الحمد لله يا رامي، أنا في البيت».

- «وراك حاجة بتعملها؟»

- «لا أبدًا».

-» خلاص كلم إبراهيم ونروح أحنا الثلاثة لأمجد، مش معقول نسيبه المدة دي من غير ما نسأل عليه، حتى لو كان هو اللي طالب كده».

- «تمام يا رامي، أنا هكلم إبراهيم ونتقابل عند الموقف على بعد العصر إن شاء الله».

أنتظر حتى يأتي الوقت المناسب، فأخرج من البيت باتجاه الموقف؛ لأجد عند وصولي إبراهيم ومحمد يقفان بانتظاري، كان الحزن يخيم على وجه إبراهيم، أقول متسائلًا:

- «مالك يا إبراهيم؟»

يرد محمد قاطعًا عليّ سماع إجابته:
- «ماكنش عاوز يخرج من البيت، خرج بالعافية».
أتابع تساؤلاتي عن حاله:
- «ليه ده كله؟»
يرد إبراهيم بنبرة حزينة:
- «مفيش يا جماعة، الموضوع بسيط».
- «طيب قول إيه الموضوع؟»
- «روحت أتقدم لسارة، أنتم كنتم عارفين إني بحبها، ورفضت».
- «طيب رفضت ليه؟»
- «قالوا ما بتفكرش في الجواز دلوقت».
- «خلاص يا إبراهيم استنى شوية؛ أنت لسه قدامك جيش».
يقطع محمد حديثنا قائلًا بحماسة:
«أنت شجعتني يا إبراهيم إني أخد خطوة إيجابية».
- «ازاي؟»
- «هروح أتقدم لجميلة ممدوح، جارتي وزميلتنا».
- «بلاش يا محمد».
- «ليه عشان شكلي يعني؟»
- «والله ما أقصد كده خالص».
- «أمال تقصد إيه؟»
- «لا عادي، أصلك ما كلمتهاش قبل كده، وخايف ترفضك

زي ما حصل معايا، على العموم حاول وربنا يوفقك».
- «أنا هستنى بعد الامتحانات، وأتقدم لها».
وصلنا نحن الثلاثة إلى منزل أمجد، فقام محمد برن الجرس حتى فُتح الباب؛ ليستقبلنا والد أمجد بحفاوة مرحبًا:
- «ازيكم يا شباب؟»
- «ازيك أنت يا عمي عامل إيه؟»
- «الحمد لله اتفضلوا ادخلوا، كويس أنكم جيتوا».
يرد إبراهيم متسائلًا:
- «ليه! فيه مشكلة يا عمي ولا إيه؟»
- «ادخلوا وأنا هأقولكم على كل حاجة، تشربوا إيه؟»
- «ولا حاجة يا عمي ما تتعبش نفسك».
- «ولا تعب ولا حاجة يا ابني، لازم تشربوا حاجة».
أهم واقفًا لأتجه نحو والد أمجد؛ فأقول ملحًا:
- «أقعد أنت يا عمي وأنا مش غريب؛ هعملكم اللي أنتم عايزينه».
- «بس يا بني...»
- «لا بس ولا حاجة يا عمي، أنا زي أمجد ولا حضرتك بتعتبرني غريب؟»
- «لا أبدًا يا رامي يا ابني».
- «خلاص أنا داخل أعملكم شاي».
شرعنا في شرب الشاي، بينما بدأ والد أمجد حديثه وقص

معضلته علينا؛ فقال:
- «ينفع إلى بيعمله صاحبكم؟»
أجيبه متسائلًا:
- «إيه اللي بيعمله يا عمي؟ وهو فين أصلًا؟»
- «ما هو ده اللي أنا بشتكلكم منه؛ مش عارف هو فين، بينام طول النهار، يصحى على الظهر، ينزل يرجع المغرب، كل يوم على الحال ده ما اعرفش بيروح فين! بحسبه بيذاكر عند حد فيكم؛ أنتم عارفين يا شباب الامتحانات على الأبواب وأنا خايف عليه».
ننظر إلى بعضنا البعض وعلامات الدهشة والتساؤل تفيض على وجوهنا.
يجيب إبراهيم رادًا على توقعه غير الصحيح؛ فيقول:
- «لا يا عمي من ساعة ما طلب مننا ما نجيش، احترمنا رغبته، بس ما تخافش احنا جنبه».
- «يعني هتكلموه وتعقلوه».
- «طبعًا يا عمي».
في ذاك الوقت يرن جرس الباب.
يقول والد أمجد ساخرًا:
- «أهو البيه شرف».
ثم يضيف قائلًا: «زي ما اتفقنا يا شباب، وما تقولوش إني قلتلكم حاجة؛ خليها تيجي منكم أنتم أحسن».
كان والد أمجد يتابع كلماته وهو يسير بخطوات وئيدة

باتجاه الباب ليفتحه؛ فاستقبله أمجد في ضجر قائلًا:
- «كل ده يا بابا!»
لم يبرح من كلمته حتى وقعت عيناه علينا نحن الثلاثة؛ فاتجه إلينا فاتحًا ذراعيه ليستقبلنا والابتسامة تميز صفحة وجهه الدائري.
يقول إبراهيم وهو يحتضنه:
- «طيب لما احنا وحشينك طلبت مننا ما نجيلكش تاني ليه؟»
يرد عليه أمجد مبررًا طلبه:
- «عشان هايجي الوقت اللي أبقى فيه لوحدي؛ فقولت لازم أتعود على كده».
- «إيه الكلام الكبير ده!»
- «مش مهم، المهم أنتم عاملين إيه؟»
أجيبه بابتسامة:
- «احنا تمام الحمد لله».
ثم سرعان ما تتلاشى تلك الابتسامة ليحل محلها الدهشة والتعجب.
«إيه يا أمجد وشك رفع وتحت عينك أسود ليه! أنت بتتعاطى حاجة؟»
يرد عليّ ساخرًا:
- «أه مخدرات».
أنتقل بناظري إلى والد أمجد متسائلًا:

- «يا عمي الواد ده بياخد منك فلوس كتير؟»
يجيبني بوجه ترتسم عليه الحيرة:
- «والله يا ابني شكيت في الموضوع، بس ما بياخدش مني فلوس كتير».
يقاطع أمجد الحديث قائلًا بوجه باسم:
- «إيه يا بابا أنت صدقت! أنا بشرب قهوة عادي».
- «طيب يا أمجد بالله عليك باقي خمستاشر يوم على الامتحان، سيبك من عادتك الغريبة دي؛ وهنيجي نذاكر معاك».
- «خلاص ماشي».
بدأ أمجد يُعدل عما يفعله مؤخرًا، وانهمك في المذاكرة بصحبتنا نحن الثلاثة، حتى انقضت فترة ما قبل الامتحان وجاءت أيام الامتحانات، التي استعددنا لها جيدًا، تتابعت الامتحانات ولم يتبق سوى مادة واحدة؛ كانت توافق يوم الخميس، يوم أن تبدلت حياتي وأخذت منعطفات مغايرة.

الفصل السابع عشر

يوم الخميس يوم أخر مادة، كان يوم مفرحًا مشوبًا بالحزن؛ الفرح بسبب الانتهاء المطلق للدراسة، والحزن أيضًا لانتهاء آخر موعد مع الجامعة، مع الأصدقاء، مع كل شيء اعتادوا عليه منذ أربعة أعوام، ولم ينسوا نصيبهم من المسؤولية التي أُلقيت على عاتقهم؛ فلا بد لهم من

الخروج من عالم الدراسة والطالب المسؤول عنه إلى عالم العمل والرجل المسؤول.
انتظرت مي حضور صديقتها سارة؛ فقد قررت أن تعتذر لها، بعد صراع مع نفسها وجدت أن من الحكمة أن تبدأ هي ولو لمرة واحدة في مصالحتها؛ فاليوم آخر يوم في الكلية، ومن الممكن أن تُشغلهما الحياة عن اللقاء كثيراً، لكن الامتحان اقترب ولم تر صديقتها؛ لتقرر أن تصالحها بعد الامتحان.
دخلوا الطلاب لجانهم، فمرت ساعتان حتى انقضت مدة الامتحان لينقضي أخر ما تعلق من أثر الأربعة أعوام، خرج الطلاب في تدافع وفرح، فبعضهم لا يعرف ما ينتظره، والبعض الآخر يجهل عمدًا ولا يُعجل به في شعوره فهو آت آت.
اتجهت مي نحو صديقاتها؛ بعد أن خرجت من لجنتها في الدور الخامس، فقالت متسائلة إحداهن:
- «فين سارة؟ حد شافها؟»
تجيبها ياسمين صديقتها مبتسمة:
- «إيه ناوية تصالحيها خلاص؟»
- «أه؛ طالما مش عاوزة هي اللي تبدأ، شوفتيها؟»
- «ما شوفتهاش، يمكن تكون جاءت متأخرة، انزلي شوفيها كده، لجنتها في الدور الرابع».
هبطت ياسمين إلى الطابق الرابع، وهي تسأل صديقاتها

المتناثرات على جانبي السلم، هل رأت إحداكن سارة؟ فيجيبنها بأن لم ترها أي منهن، اتجهت مي إلى لجنة سارة؛ فطرفت عيناها بحثًا عنها لكنها لم تجدها في أي مكان؛ لتقرر أن تسأل إحدى صديقاتها والتي تجلس بجانبها.

- «ما شفتيش سارة يا سلمى؟»

تجيب الفتاة عليها منكرة:

- «لا ماجتش الامتحان النهارده؛ أنا مستغربة أوي».

زاد قلق مي، وشعرت أن هناك مشكلة كبيرة تواجه صديقتها.

فبدأت بالاتصال بها دون إجابة؛ ازداد القلق والتوتر حتى جاءت زينة صديقة سارة وجارتها؛ تبكي بكاء حارًا، فاستوقفتها مي لتسألها عن سبب بكائها، فقالت وما تزال تبكي وتزيد في البكاء:

- «سارة ماتت النهارده الصبح».

وقفت مي لثوانٍ لم تستوعب فيها ما قالته زينة، وكأن أذنيها لا تسمع شيء حولها، ثم هوت على الأرض مغشيًا عليها، تجمعن الطالبات حولها؛ وتطوعن بنقلها إلى المستشفى بعدما وجدن صعوبة في إفاقتها.

تناقل بين الطلاب خبر موت صديقتهم سارة، حتى وصل الخبر إلى إبراهيم؛ الذي انسحب من وسط الجموع عائدًا إلى بيته دون أن ينبس بكلمة واحدة.

وصل الشاب إلى منزله، فمرق إلى حجرته بقلب مفعم بالحزن، أغلق الحجرة بالمفتاح حتى لا يدخل عليه أحد، ثم انفجرت ينابيع عينيه بالبكاء دون توقف، بعد مرور ساعات قليلة ذهب الأصدقاء إلى جنازة صديقتهم كل واحد بشعور مختلف؛ كنت أشعر بالحزن لفقد صديقة حبيبتي، وأعلم أن لذلك أثر كبير عليها في المستقبل، بينما أمجد فذهب ليتذكر أمه ويجدد جراحه، ومحمد الذي ذهب بشعور الخوف والحزن؛ فتاة في نفس سنه كان يراها من الحين للآخر أصبحت الآن في تعداد الموتى، تقارب شعور الثلاثة في الخوف والحزن والقلق.

بينما كان لإبراهيم شعور آخر غير شعورهم؛ شعور بالفجيعة كمن ماتت روحه، شعور من فقد ابنته، وزوجته، شعور من فقد أعز شيء إلى قلبه، شعور الخواء في نفسه.

لم تختلف الجنازة كثيراً عن جنازة والدة أمجد؛ ولكن الشعور المتبادل بين الناس تخطى الواجب والسعي المشكور إلى الحزن؛ الحزن الحقيقي من أعماق قلوبهم على شابة ماتت في ريعان شبابها.

في المساء استعادت مي وعيها فوجدت نفسها في غرفة في إحدى المستشفيات، يلتف من حولها والداها وأختها وعائشة صديقتها؛ التي عادت لتطمئن عليها.

بدأت مي بالسؤال على صديقتها؛ وكأن حديثها الأخير

مع زينة كان مجرد حلم، تريد أن تتأكد من صحته.
لم يجبها أحد وعندما أعادت سؤالها، اقتربت منها عائشة وأمسكت يدها ثم قالت وما تزال آثار الدموع بعينيها:
«ربنا بيحبها واختارها، لله ما أعطى ولله ما أخذ، ولا نقول إلا ما يرضي الله، ادعي لها يا مي اليوم ده صعب عليها؛ ادعي لها ربنا يثبتها عند السؤال».
انقلبت مي في وضعيتها؛ فدست وجهها لتقابل مرتبة السرير ويديها تقبض على فراشه، لم تصدر صوتًا للبكاء سوى أنين يشعرك بالتهاب أحشائها، كغليان الحمم البركانية في جوف الأرض.
ربتت عائشة على ظهرها وهي تقول بصوتها الباكي:
- «أهدي يا مي، إن شاء الله هي في مكان أحسن».
بدت مي في حالة صعبة تزداد سوءًا كل دقيقة، فاستدعوا الطبيب عندما يأسوا من تهدئتها؛ جاء الطبيب وأعطاها حقنة مهدئة وطلب منهم أن يتركوها لتستريح.
خيم الحزن على الجميع في هذه الليلة؛ وكان أكثر شخصين يتجرعان الحزن حقًا والدة سارة وإبراهيم، لم يجدا سوى قراءة القرآن والدعاء ليخفف عنهما، ما أصعبها ليلة!

الفصل الثامن عشر

خرجت مي من المستشفى بعد أن قضت ثلاث ليالٍ، لم تتذكر فيهم شيء سوى موت أعز صديقة لها، كانت تلوم نفسها على كل ثانية في خصومتها، وتمنت لو يرجع بها الزمن خمس دقائق فتعتذر عما بدر منها، ولكن هيهات أن يرجع.

قضت مي ساعات في منزلها ما بين قراءة القرآن والدعاء حتى جاءتها أمها لتبلغها بوجود زائر؛ رفضت الفتاة أن ترى أحد ولكن أقنعتها أمها بالمقابلة.

دخلت عائشة على مي بوجه حزين يُسدل عليه ابتسامة مصطنعة، أقبلت نحوها ثم قالت متسائلة:

- «ازيك يا مي عامله إيه؟»

تجيبها مي بوجهٍ لا يخلو من أثر الحزن:

- «الحمد لله ياً عائشة».

- «عندي ليكِ رسالة ولازم أبلغها لك».

- «من مين؟»
- «من سارة».
أشعل الاسم فتيل قلب الفتاة؛ فجذب انتباهها بعد حالة الفتور الشديد التي كانت عليها؛ فقالت بحماسة:
- «إيه الرسالة؟»
- «أوعديني الأول إنك ما تبكيش وتتمالكي نفسك».
- «أوعدك».
- «من أسبوعين سألت سارة عن علاقتها بيكِ وليه زعلانة منك، قالت لي إن هي مش زعلانة وبتحبك جدًا، لما سألتها ليه مصلحتهاش! قالت لي عشان بحبها وعوزاها تتعود على غيابي، ما كنتش فاهمة هي تقصد إيه بس فهمت دلوقت قصدها».
أمسكت مي نفسها عن البكاء حتى لا تنكس وعدها فقامت بتحويل مجرى الحوار متسائلة:
- «سارة كانت بتحفظ قرآن؟»
تجيب عليها عائشة بحماسة:
- «سارة في ظرف شهرين ونص حفظت ٣١ جزء ما شاء الله علمتني إن إلى عاوز يوصل لحاجة بيوصل لها».
- «يلا بينا».
- «هنروح فين يا مي؟»
- «أنتِ عارفة قبرها فين؟»
- «أه عارفة».

- «طيب أنا هلبس ونروح بسرعة».
خرجت مي بصحبة عائشة من منزلها متجهتين صوب قبر سارة، فتوقفتا عنده وأقبلتا تدعوان لها بشدة، ثم طلبت مي معتذرة من عائشة الابتعاد قليلًا حتى تحدث صديقتها.
بدأت مي تحدث صديقتها وهي تحاول أن تحبس دموعها المتلألئة في مقلتيها؛ فبدا صوتها مبحوحًا متقطعًا، اعتذرت مي إليها عما حدث مؤخرًا بينهما، وقصت عليها مواقف كانت تجمعهما، ومع كثرة الكلام بدأت الدموع تنهمر والصوت الحزين يشتد والأنفاس المثقلة تزداد؛ عند ذلك قررت عائشة أن تتدخل متجهة ناحيتها لتحتضنها وتطلب منها المغادرة؛ حتى لا تصاب بصدمة عصبية.
بعد أن خرجت الفتاتان من بين دهاليز القبور، طلبت مي أن تزور والدة سارة؛ فاستجابت عائشة لطلبها وشجعتها بالذهاب معها.
استقبلت والدة سارة عائشة ومي بوجهٍ مكفهر، جلستا الفتاتان أمام والدة سارة فساد الصمت هنيهة حتى قطع الصمت قول عائشة:
- «ازيك يا ماما؟»
أيقظت الكلمة شعور الأمومة لدى والدة سارة؛ فنظرت إليها باكية محركة شفتيها بترديد كلمة ماما دون أن

تصدر لها صوتًا.
ثم تبعت حركة شفتيها إصدار صوت قائلة:
- «كانت بتجيلي تقولي يا ماما ضفريلي شعري عشان بابا جاي دلوقت؛ وأول ما أبتدي أضفر لها شعرها تفضل تضحك لوحدها؛ ضحكتها كانت بتضحكني من غير ما تقول حاجة، بس خلاص هما الاتنين سابوني لوحدي».
اتجهت عائشة إليها ثم قبضت على راحتيها قائلة:
- «احنا كلنا ولادك وجنبك، سارة كانت بتحفظ معايا قرآن، والحمد لله خاتمتها كانت حلوة، ربنا يحسن خاتمتنا جميعًا، ربنا وعدك بالجنة فيه أكتر من كده!»
تقول والدة سارة مندهشة:
- «وعدني أنا!»
- «أه، ربنا قال وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وربنا سبحانه وتعالى وعد الصابرين بالجنة دون حساب ولا سابقة عذاب».
- «إنا لله وإنا إليه راجعون، ونعم بالله يا بنتي».
- «على العموم أنتِ أمنا كلنا واحنا ولادك، وإن شاء الله هنعدي عليكِ على طول نقعد معاكِ».
- «تشرفي يا بنتي».
خرجت مي وعائشة دون أن تنطق مي بكلمة واحدة طول مدة الزيارة؛ مما دعا عائشة للتعجب؛
فسألتها قائلة:

- «إيه يا مي ماتكلمتيش خالص!»
فردت عليها مي بحزن بدا على صوتها:
- «صعبانة عليا أوي، ربنا يصبرها».
- «يا رب، يلا نروح بقى الوقت اتأخر، وبابا بيرن عليا».
- «طيب روحي أنتِ يا عائشة، أنا رايحة مشوار كده».
- «طيب أجي معاكِ؟»
- «لا روحي أنتِ، أنا عاوزة أروح لوحدي».
- «طيب أبقي طمنيني عليكِ لما تروحي، سلام».
ذهبت عائشة وتركت مي تردد كلمة -عاوزاها تتعود على غيابي- في أذنيها، تذكرت مي زينة فذهبت إلى منزلها الذي لم يبعد كثيراً عن منزل سارة.
استقبلت زينة مي بالترحاب الشديد؛ فقالت متسائلة:
- «عاملة إيه دلوقت يا مي؟»
ترد عليها مي في عُجالة من أمرها:
- «الحمد لله، أنا عاوزاكِ في موضوع كده».
- «إيه يا مي؟ خير؟»
- «سارة ماتت ازاي؟»
خيم الحزن على وجه زينة، فأشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى؛ لتعاود مي السؤال مرة أخرى قائلة:
- «إيه متعرفيش؟»
- «لا عارفة».
- «قولي؟»

- «سكتة قلبية».
- «كان عندها حاجة في القلب؟»
- «أه كانت مريضة بالقلب».
- «قالت لك ومقالتليش ازاي!»
- «هي كانت عاوزة تقول لك بس مالقتش فرصة مناسبة، هي مقالتليش على فكرة».
- «طيب عرفتي منين؟»
- «كنا مروحين مع بعض فمسكت قلبها وكانت بتتألم أوي وفجأة أغمى عليها، حسيت ساعتها إني خايفة ومش عارفة أعمل حاجة، واحد خدنا بالعربية للدكتور وعملها أشعة ورسم قلب، واتضح إنها مريضة بالقلب، وإنها معرضة للموت في أي لحظة».

بكت مي بشدة فأخذت زينة تربت على ظهرها وتهدئها.

الفصل التاسع عشر

بعد مرور شهرين على وفاة سارة بدأت مي رحلة التغير، فأرسلت إلى عائشة على الواتس آب رسالة تدعوها لمقابلتها، كانت عائشة تنتظر تلك الخطوة من مي؛ فذهبت إليها على عُجالة، وعند رؤيتها قالت عائشة مرحبة بابتسامة:

- «ازيك يا مي؟ عاملة إيه؟»

- «الحمد لله، كنت عاوزة أطلب منك طلب؟»

- «اطلبي يا مي».

- «كنت عاوزة أحفظ قرآن زي سارة».

سكتت عائشة قليلًا ثم قالت متذكرة اليوم الذي جاءتها برسالة من صديقتها سارة:

- «تعرفي إن الرسالة اللي كنت عاوزة اقولها لك إن سارة وصتني عليكِ، وكانت نفسها أنك تحفظي قرآن».

قالت مي بحزن بدا على صفحة وجهها:

- «الله يرحمها».

- «أنا حاولت أتواصل معاكِ، بس شكلك قفلتي الفيس حتى رقمك غيرتيه».

- «كده أحسن عشان مفيش حاجة تشغلني عن هدفي».

- «ربنا يثبتك يا مي ويعينك على طاعته».

- «آمين يا رب».

استبدلت مي ستايل ملابسها بملابس أكثر ملائمة للحجاب

الذي قررت أن ترتديه، ثم بدأت المنافسة بين عائشة ومي بعد أن كانت بين عائشة وسارة على حفظ كتاب الله وحضور دروس العلم؛ فاستطاعت مي أن تثقف نفسها دينيًا وحاولت بالقدر المستطاع أن تُبعد نفسها عن الأحزان؛ فكلما شعرت بالحزن أمسكت المصحف لتقرأ وعند انتهائها كانت تدعو لصديقتها إن كان تقبل الله منها هذا العمل أن يرحمها ويغفر لها.

****

شعر محمد أنه الوقت المناسب للذهاب لخطبة جميلة؛ ففاتح والده في الأمر لم يكن هناك ما يمنع ذلك من الناحية المادية؛ فوالد محمد يمتلك الكثير من المال، وصارحه في أكثر من مناسبة أنه يريد أن يزوجه مبكرًا؛ فالمال موجود والشقة أيضًا يوجد منها اثنتان خاليتان في عمارته، عندما سمع من ابنه هذا الأمر ابتسمت أساريره وطلب من زوجته أن تذهب بصحبة ابنها لتعرف ردهم أولًا.

نفذت والدة محمد كلام زوجها فذهبت بصحبة ابنها إلى منزل جميلة؛ فاستقبلتها والدة جميلة بالترحاب الشديد فهي جارتها منذ زمن بعيد وصديقة لها.

بدأت والدة محمد حديثها دون مقدمات؛ فوالدة جميلة تعرف أخلاق محمد وتعرف أيضًا مستواهم المادي والمكانة التي تنتظره.

لكنها طلبت مهلة لتحدث ابنتها، رفضت والدة محمد المهلة بحكم صداقتها ودعتها لتحدثها أمامها؛ فلم تجد والدة جميلة مخرج سوى أن تحدث ابنتها على انفراد وتبلغهما في نفس الوقت برغبتها.
انتظر محمد ووالدته جواب جميلة، فبدا متوترًا بينما كانت أمه تحاول أن تهدئه قدر المستطاع، دخلت والدة جميلة حجرة ابنتها فوجدتها تتحدث في الهاتف وبدا على جميلة الارتباك فوضعت الهاتف جانبًا على الفراش حتى لا تراه أمها.
وقالت بضجر:
- «إيه يا ماما مش تخبطي الأول؟»
فردت عليها أمها مبتسمة:
- «جاي لك عريس».
- «ده مين ده كمان؟»
- «محمد جارنا وزميلك في الكلية».
- «أنتِ بتهزري يا ماما! محمد مين ده كمان اللي أبصله؛ أنتِ مش شايفة شكله».
- «يا بنتي عيب، الناس قاعدة بره يسمعوكِ».
«أطلع أقول له إنه وح...»
قطع حديث جميلة صوت صفعة باب الشقة؛ فاتجهت جميلة ووالدتها إلى الصالة فلم تجد بها أحد فقد غادر محمد ووالدته.

نظرت والدة جميلة إلى ابنتها وقالت معاتبة إياها:
- «عجبك كده أهو سمعك».
- «ما يسمع ما بقاش غير محمد ده كمان».
هبط محمد درجات السلم مسرعًا، وأمه تحاول اللحاق به حتى دخل منزله واتجه صوب حجرته، فأغلقها على نفسه بالمفتاح وظل يبكي، وأمه تطرق الباب وتنادي عليه محاولة التخفيف عنه ببعض كلمات التشجيع والتهدئة ولكن دون جدوى.

الفصل العشرون

بتعاقب الأيام بدأت الحياة تتخذ منحنيات مغايرة مع الأصدقاء؛ فلم يعودوا يجتمعون منذ أخر يوم من أيام الامتحانات، أشعر بالغربة بعد أن اعتدت التحدث إلى مي يوميًا، والآن لا أقدر على الوصول إليها بشتى الطرق؛ فكانت أخر محاولاتي أن أرسلت لها صديقتها ياسمين تدعوها لمقابلتي ولو لمرة واحدة فقط؛ فجاء الرد سريعًا بعدم الموافقة، ها هي أسوار السجن الخارجي الذي ارتميت بين جدرانه الممثلة في حجرتي تفرض نفسها عليّ، والأشد القيود النابعة من الفكر تجعلني قصير الذراع لا أقدر على فعل شيء، أحبس كل ما أتمناه في نفسي رغمًا عني؛ فأصبحت الحياة دون لون أو طعم أو رائحة، أحاول أكثر من مرة التهوين على نفسي بقراءة الرسائل التي كانت تجمعني بمي، ولكن ما زادتني إلا حزنًا فوق حزني لا أجد حلًا سوى الخروج من غرفتي حتى لا أصاب بالجنون.

أتصل بأمجد أدعوه لمقابلتي فيعطيني موعدًا بعد المغرب؛ المغرب! أتذكر حديث والد أمجد عن عاداته الغريبة التي أقلع عنها أخر مرة رأيته فيها، ترى هل عاد إليها؟ وما هي العادة الغريبة التي جعلته يخرج من أزمته بعد أن لازم منزله لفترة؛ هل تصلح لي؟ لا أعلم أي قهوة يشرب! من المؤكد أنه يقصد شيء آخر بكلمة القهوة.

تقابل الصديقان عند الموعد المحدد.
بدا على ملامح أمجد التغير الملحوظ فالجسم أصبح أكثر نحافة، وعظام الوجه بارزة أكثر مما كانت عليه مع جحوظ للعينين، بالإضافة إلى الهالات السوداء التي تحيط بهما، هذا المظهر الذي رأيته المرة السابقة قبل أن يقلع عن شرب القهوة بل كان أقل حدة من ذلك، هل القهوة التي ذكرها تعبر عن نوع من المخدرات؟ لا أعلم.
أقوم بالسلام عليه ثم استطرد قائلًا:
- «إيه يا أمجد، أنت رجعت تاني للقهوة؟»
يبتسم أمجد دون أن يظهر أسنانه فيقول موافقًا:
- «أه بحس براحة أكتر».
- «ازاي بتحس براحة أكتر؟»
- «عارف يا رامي لما الحاجة تبقى قدامك أيام وشهور ويجي حاجة عكسها ولو بسيطة بتحس بيها وتلاحظها وبتأثر فيك».
- «مش فاهم تقصد إيه؟»
- «يعني لما تحس بالوحدة وأنت لوحدك، ولما تقابل شخص بتحبه الوحدة تضيع؛ أحسن ما تحس بالوحدة مع الشخص اللي بتحبه، حاول تحل الصراعات الداخلية اللي محدش هيقدر يحلها غيرك، واللي بتلوم اللي حواليك فيها عشان مفيش مساعدة منهم؛ ساعتها هتحس إن اللي بتحبه وبتستريح معاه في الكلام لسه ليه نفس التأثير

الإيجابي عليك أحسن ما يبقى زي قلته».
- «فعلا عندك حق».
- «أنت شكلك زعلان، إيه السبب؟»
- «مي اتغيرت؛ مش عارف أوصل لها، وحاسس إن هي بضيع مني».
- «حاول تلاقي نفسك الأول عشان تلاقيها».
- «ازاي؟»
- «بلاش حب الامتلاك؛ الحاجة قدامي وهابقى أخدها من غير تعب وتزعل لو حد غيرك تعب وخدها».
- «أنت فاكر إني مش عاوز أتعب عشان أوصل! بس فين أول السلم؟»
- «ما يمكن أول السلم محتاج مجهود شوية؛ أنزل أشتغل أي حاجة لحد ما تلاقي أول السلم».
- «طيب ما تقول الكلام ده لنفسك».
- «شاربو الخمر واجب عليهم أن يتناهوا فيما بينهم، أبدأ أنت وإن شاء الله أحصلك».
- «ليه منبدأش مع بعض؟»
- «أنا مش مستعجل، ومش مستني حد أتجوزه؛ غير كمان إني مبسوط بحياتي كده».
- «أنا عاوز أجي معاك يوم القهوة».
- «مش هينفع يا رامي».
- «ليه؟»

- «هابقى أقولك بعدين».
- «بتشوف حد من صحابنا؟ معرفتش أوصل لهم».
- «شوفت محمد بس، إبراهيم ما بيخرجش ومش عاوز يقابل حد».
- «ومحمد عامل إيه؟»
- «حزين؛ أتقدم لجميلة واترفض».
- «إبراهيم نصحه قبل كده، وأنت عارف ليه».
- «عارف، بس ماكنش ينفع نقول له».

ساد الصمت بيننا كأن لم يكن هناك حديث من الأساس، انتهت المقابلة بازديادي تشويقًا لمعرفة القهوة التي غيرت الكثير من أفكار أمجد، وجعلته يشعر بالسعادة أو التجاهل، فكلاهما سواء، لم يكن هناك تصور في عقلي سوى أنه نوع من المخدر يجعله لا يتذكر ما أحزنه أو عقار مثل الدوبامين يعطيه السعادة، إن كان هذا أو ذاك فلا بد أن تنقشع الغمامة من على عيني وأعرف الحقيقة؛ ولما الانتظار! بتلك الخطة التي رسمتها في عقلي؛ تقربني أكثر إلى معرفة حقيقة القهوة.

أغادر منزلي بعيد الحادية عشر صباحًا، أجلس على قهوة عند رأس الشارع الذي يقطن به أمجد، ولكن أجلس للداخل حتى لا يراني، وعيني صوب المارة أترقب قدومه من الحين للآخر؛ على حسب وصف والد أمجد بموعد مغادرته عند الظهر وعودته قُبيل المغرب.

مرت نصف ساعة من الترقب والبحث بين المارة بعيون ثاقبة عن أمجد، كلما اقترب الموعد أزداد تركيزًا فوق تركيزي، أرى أمجد الآن ينزلق مع المنزلقين؛ أتمهل قليلًا ثم أحذوا حذوه تاركًا مسافة بيني وبينه حتى لا يراني، يركب أمجد الترام فأتبعه في العربة الأخيرة، أقترب من أبواب الترام بجسد مُوارى خلف حديده وعينين تترقبه عند كل محطة، حتى هبط أمجد منه بعد مرور ثلاث محطات؛ أنتبه إلى نزوله فأتبعه، يتجه الآن نحو شارع غريب الطور كان شارعًا متعرجًا كثير العطفات؛ أندهش إلى معرفة صاحبي لهذا المكان، وازداد يقينًا بأنه سينتهي هذا الشارع عند تاجر مخدرات يبتاع أمجد منه ما يسميه بالقهوة.

اللحظة تقترب. بعد أن أكمل أمجد طريقه المتعرج دخل بيت ذا طراز مدهش؛

بيت من الخشب البني المحروق محدد الأطراف باللون الأسود، مفرغ من المنتصف بزجاج فاميه.

سقفه مثلث الشكل ومكتوب على وجهته كلمة «القهوة» باللون الأحمر.

أنبهر بهذا المنزل العجيب وأشعر بالخوف لرؤية أمجد لي من خلف هذا الزجاج فآخذ جانبًا؛

أتأمل البيت مليًا، بعد مرور القليل من الوقت أهم بالمغادرة، فتدعوني نفسي للرؤية من الداخل؛ ولكن من

الممكن أن يشعر أمجد بالضيق عند رؤيتي داخل هذا المكان؛ من الأفضل أن أنتظره حتى يخرج فألقاه وأحدثه.
عيناي مثبتة على البيت تتأمله حتى مرت ثلاث ساعات.
خرج أمجد من المكان ليراني أنتظره في الخارج فما كان منه إلا أن حدجني بنظرة غضب ووجهٍ واجمٍ كأنما يعاقبني على فعلتي غير المبررة ثم استرسل؛ فقال بضجر:
- «أنت بتراقبني يا رامي؟»
أرد عليه بحزن على سوء ظنه بي:
- «أنا خايف عليك».
- «أنا مش صغير».
- «عارف بس أنا صاحبك، وكان لازم أعرف بتعمل إيه؟»
- «وأديك عرفت».
- «إيه المكان ده؟ عاوز اشوفه من جوه».
- «مش هينفع يا رامي؛ أنا فترتي خلصت ومش عاوز أدخل».
- «يعني إيه؟»
- «يعني فيه خمس فترات، بختار فترة فيهم، ده بعد استمارة وحاجات كده، ده في حالة لو عاوز تبقى عميل، ما تشغلش بالك أنت».
- «ودي أفضل فترة؟»
- «لا الفترة المميزة بعد دي، من بعد المغرب».
- «أنا لازم أدخل».

- «يوه على زنك، حاضر بكره أبقى تعالى معايا».
- «خلاص ماشي».
شعر أمجد بالغضب لمعرفة سره، لكني الآن أشعر بالارتياح لصدق صديقي بالإضافة إلى شعوري بالذهول لاكتشاف هذا المكان؛ وقريبًا سأجلس بداخله، ترى ما المميز فيه إلى هذا الحد؟ لا أعرف ولكن من المؤكد أنني سأعرف عنه كل شيء عما قريب.
أستيقظ من نومي بعيد الحادية عشر والنصف، لدي كامل الشغف لمعرفة المكان الذي أشغل تفكيري عن أحزاني ولو لبعض الوقت؛ فتلك كانت أطول هدنة مع الحزن الذي لازمني في الفترة الأخيرة، أتجه إلى منزل أمجد فأصطحبه ثم ننطلق إلى القهوة.
يتوقف أمجد عند الطريق المتعرج المفضي إلى القهوة؛ أحتج متسائلًا:
- «إيه يا أمجد وقفت ليه؟»
يرد أمجد بوجه يخلو من أي تعابير:
- «عاوز الأول منك وعد وبعدها هأقول لك قوانين المكان».
- «وعد بإيه؟»
- «إنك ماتجيش تاني، وتكون دي أخر مرة».
- «أوعدك».
- «تمام أول ما ندخل هتلاقي مكانين واحد خارجي

وواحد داخلي؛ أنا هاقعد في المكان الداخلي، الفرق إنه هادي أكتر، وأنت هتقعد في المكان الخارجي».
- «ماشي موافق، يلا بقى».
- «يلا».
انطلقنا نحن الاثنان إلى مقصدنا، وعند بلوغنا القهوة نظر إليّ أمجد وكأنما يذكرني بوعدي الذي قطعته على نفسي؛ فأومأت له بأن يطمئن.
تركني واتجه إلى المكان الداخلي بينما اتجهت لأجلس في المكان الخارجي على ترابيزتي وحيدًا ويبدو أنني لم أكن الشخص الوحيد الذي يجلس على تربيزة بمفرده فهناك الكثير مثلي.
يأتي الجرسون بزيه المميز فينحني؛ ليصب القهوة في فنجان قد وضعه على ترابيزتي ثم يترك ليّ ورقة؛ أشعر بالتعجب والدهشة فأنا لم أطلب شيئًا بعد، لكن سرعان ما تزول دهشتي عندما أجد من حولي يتساقون نفس الطلب، أنظر إلى الورقة المغلقة وأظن أنها لسؤالي عن القهوة المقدمة إليّ.
أقرب الفنجان من فمي أرتشف منه رشفة لأتذوق طعم القهوة؛ بدا طعمها لاذع يمتزج بسخونة أحرقت طرف لساني؛ أغمض عيني لثوانٍ معدودة، ثم أضع يدي على الورقة فأقوم بفتحها لأجدً في مقدمتها جملة أدهشتني: «ليست العزلة بانعزالك عن البشر، إنما

العزلة بانعزال البشر عنك».
ثم تلاها سؤال.
هل تريد الانتقال إلى المكان الداخلي؟ ومن بعدها قوانين المكان الداخلي.
١- الاشتراك ٠٠١ جنيهًا بالإضافة إلى ثمن القهوة.
٢- أن تجلس منفردًا على تربيزتك الخاصة.
٣- عدم التحدث مع من حولك وعدم إصدار أي صوت.
٤- استحقاق الطرد في حالة إصدار صوت وإذا عدت للفعل؛ استحقاق وضعك في القائمة السوداء ومنعك من دخول المكان مرة أخرى.
٥- يجدد الاشتراك شهريًا.
أُعيد النظر إلى السؤال مرة أخرى، ثم أنظر إلى الدهليز المفضي إلى المكان الداخلي الذي ابتلع صديقي؛
كان هناك صوت ضعيف لآلة موسيقية ورائحة ضعيفة تفوح من المكان تشعرك بالراحة، أتردد في الإجابة ولكن أتذكر وعدي الذي قطعته على نفسي بعدم الذهاب مرة أخرى فأجيب في النهاية بالنفي.
أكمل قهوتي غريبة المذاق فأبقى منتظرًا لحين خروج صديقي، يخرج أمجد فأتجه إليه بعد أن قام بدفع الحساب، وعندما نجتاز الباب أقبض برفق على عضده، ثم أقول له متسائلًا بدرجة كبيرة من الشغف:
- «إيه الفرق ما بين المكان الداخلي والخارجي؟»

يرد أمجد بنفاد صبر:
- «قلت لك أكتر هدوء، رامي أنت وعدتني!»
- «مش هاجي تاني خلاص، بسأل بس».
- «تمام».
أعود إلى المنزل وعقلي منشغل بهذا المكان وقوانينه الغريبة إلى حد كبير، أأحنث وعدي الذي قطعته على نفسي وأذهب إلى القهوة، أم أظل أفكر فيما آل إليه أمري بعقل شارد ونفسًا لا تجد من الحزن ملجأ إليها سوى النوم.

الفصل الحادي والعشرون

ظهرت نتيجة الامتحانات وتباينت تقديراتنا؛ فحصلت أنا ومحمد على جيد، بينما حصل إبراهيم وأمجد على جيد جدًا، سمعت مي بظهور النتيجة فأدخلت رقمها لتجد

نفسها من الفئة الناجحة بتقدير جيد جدًا، انتظرت مترددة أمام شاشة الحاسوب لدقائق، ثم أدخلت رقم وعادت لتمسحه في تردد وفي النهاية أدخلته؛ لتنظر إلى الاسم بقلب مفتور وصدرٍ مترعٍ بالهموم، سارة محمد عبدالسلام، ابتعدت بناظريها عن الاسم إلى تقديرات المواد فلم تخرج تقديراتها عن الامتياز والجيد جدًا إلا في أخر مادة؛ تذكرت مي ذلك اليوم؛ فأغلقت الحاسوب وأمسكت المصحف تقرأ فيه وبعد أن انتهت دعت من أعماق قلبها أن يغفر الله لصديقتها، تلك العادة التي تعودت عليها لتزيل أحزانها، تلقت مي اتصالًا من عائشة تبارك لها وتطمئنها أنها نجحت هي الأخرى بتقدير جيد جدًا، وتبلغها أيضًا أنها في الطريق إليها.

وصلت عائشة إلى المنزل فاستقبلتها مي بابتسامة، ثم احتضنتها وهي تبارك لها مرة أخرى.

بعد أن استقرت عائشة على الكرسي المقابل لفراش مي بينما جلست مي على حافة الفراش؛

قالت عائشة مبتسمة:

- «الحمد لله ربنا كرمنا عشان ماشيين في طريقه».

ردت مي لتقابلها بفرحة فاضت من عينيها وارتسمت أعلى شفتيها:

- «عندك حق، الحمد لله».

سرعان ما انقلبت ابتسامة مي إلى حزن خيم على صفحة

وجهها الدائري، مما استدعى صديقتها لسؤالها عن السبب فقالت مي بوجوم:
- «أنا شوفت نتيجة سارة الله يرحمها».
- «الله يرحمها. وإيه اللي مزعلك؟»
- «دايمًا فاكراها وبحاول أعمل نفسي مش واخده بالي وأشغل نفسي بأي حاجة عشان ما ازعلش، حتى صورها مش عاوزة أشوفها عشان محسش بفراقها، وفي دعائي ليها بأبقى مش عاوزة أستحضر صورتها بمجرد ذكر اسمها، وخايفة أفتكر أي موقف بينا، أوقات كتير بقول يا رتني ما عرفتها».
- «ده طبيعي يا مي عشان الحياة تعدي، ولو أنتِ ما عرفتهاش ما كنتيش أتغيرتِ وبقيتي على اللي أنتِ عليه، ربنا بيحبك؛ وكل حاجة بيعملها خير حتى موت سارة كان خير، ادعي لها وادعي ربنا يجمعنا بيها على خير».
- «يا رب، أنتِ روحتي لوالدتها امبارح؟»
- «أه».
- «زعلانه مني عشان مجتش صح؟»
- «يعني ... بصراحة أه، اتعودت إننا نروح لها كل يوم».
- «خلاص أنا هاصالحها النهارده؛ هاجيبلها تفاح أخضر هي بتحبه».
ابتسمت عائشة معلنة موافقتها التامة على هذا الرأي، بعد انتهاء درس المراجعة على ما حفظته الفتاتان من

القرآن، اتجهتا إلى منزل والدة سارة بعد أن توقفتا لشراء التفاح الأخضر.
قبل ارتقاء السلم أوقفت مي صديقتها متسائلة:
- «هنقول لها على النتيجة؟»
ردت عائشة قائلة:
- «لا، أنا شايفة مالهاش لازمة نزعلها».
- «أنتِ عارفه إنها بقى لها فترة بتسأل على النتيجة».
- «لو سألت هنقولها؛ غير كده مفيش داعي».
- «تمام».
ارتقت الفتاتان درجات السلم حتى وصلتا إلى باب الشقة؛ فصفعته مي بنغمتها المعتادة لتتجه والدة سارة نحو الباب مبتسمة وكأنما أدركت من الطارق؛ فتحت الباب لتستقبلهما بابتسامة ثم تحولت ابتسامتها إلى حزن مصطنع؛ فولت إياهما ظهرها؛ اجتهدت مي لمصالحتها قائلة:
- «والله أختي كانت تعبانة، أنا حتى مجتش التسميع، اسألي حتى عائشة».
ردت عائشة مبتسمة:
- «فعلًا حصل يا ماما».
تابعت مي حديثها:
- «أنا جيبالك التفاح إلى بتحبيه كمان، يلا بقى».
نظرت والدة سارة إليها مبتسمة، ثم ضمتها إليها وعند

ذلك قبلت مي وجهها ورأسها وكأنما تعتذر لها مرة أخرى.
جلست الفتاتان بينما ظلت والدة سارة واقفة لتسألهما:
- «أكلتم يا بنات؟»
نظرت الفتاتان بعضهما إلى بعض ثم أجابتا في آن واحد.
- «لا».
- «طيب أنا هاجيب لكم الأكل».
بدأت الفتاتان في مساعدة والدة سارة في إحضار الطعام وبعد تناوله، أحضرت الشاي وأثناء احتسائه انهارت الأسئلة على مي وعائشة عن أحوالهما، ثم تطرقت إلى سؤالها حديث العهد في الفترة الأخيرة؛ فقالت:
- «نتيجتكم ظهرت ولا لسه؟»
نظرت مي وعائشة إلى بعضهما البعض دون أن تنبسا بكلمة واحدة، فأعادت عليهما نفس السؤال.
لم تستطع مي الإجابة فتركت صديقتها تنوب عنهما قائلة:
- «أه ظهرت».
- «عملتوا إيه؟»
- «الحمد لله يا ماما جيد جدًا».
- «ألف مبروك يا بنات، محدش شاف نتيجة سارة؟»
ساد الصمت الذي قطعه معاتبة والدة سارة قائلة:
- «إيه محدش شاف نتيجتها!»
فأجابت مي بوجه واجم:

- «لا، أنا شفت نتيجتها».
- «وعملت إيه؟»
- «جابت أعلى مننا ما عدا أخر مادة».
ابتسمت والدة سارة وقالت والدموع تتلألأ في عينها:
- «وهيفيدها بأيه بقى!»
نظرت إليها عائشة وقالت محتجة:
- «لا طبعًا هيفيدها أكيد؛ اللي تعب ربنا بيجازيه خير، ربنا ما بيضيعش تعب حد أبدًا».
- «ونعم بالله يا عائشة».
استطردت عائشة محاولة تغير نمط الحوار فقالت متسائلة:
- «عملتي إيه بقى يا ماما في الحفظ».
فقالت والدة سارة مبتسمة:
- «يعني، الحمد لله مش هغلط المرة دي».
- «إن شاء الله».
بعد انقضاء بضع ساعات جاء وقت الرحيل، الوقت المكروه بالنسبة لوالدة سارة، حيث يغلب عليها الذكريات المؤلمة، والتي تصبر نفسها بقراءة القرآن؛ أخذت تلك النصيحة من مي عندما اعترفت لها بحزنها عند المغادرة في إحدى المرات.
الفصل الثاني والعشرون
أعلنت الجامعة عن سحب ملفات الطلاب؛ فأقبل كل

طالب على سحب ملفه، أذهب بالأمل الذي منيت به نفسي للقاء؛ أقف خارج مكتب التسليم بعد أن استلمت شهادتي، أنظر إليها نظرات عدم الاكتراث فما زادتني شيء وأني كنت أعلم ذلك من قبل أن أخطوا بقدمي داخل الجامعة، أرفع عيني عن الشهادة لأرى مي.
تقابلت أعيننا فهمت بالرحيل لكني اتجهت إليها مسرعًا فاستوقفها؛ تنظر حولها في خوف وارتباك ثم تنظر إليّ وتقول بضجر:
- «ما ينفعش اللي أنت بتعمله ده، كده غلط».
أرد عليها محاولًا الاعتذار والتوضيح:
- «أنا آسف، بس مفيش طريقة تانية أشوفك بيها».
تتابع مي حديثها الملفوح بالضجر:
- «لا تشوفني ولا اشوفك وابعد عني».
تهم مي بالمغادرة؛ لا أجد طريقة لإيقافها سوى استشفاعي لها بصديقتها من أجل سماعي لعلها لا تخيب رجائي:
- «ورحمة سارة لتسمعيني».
توقفت مي فتابعت حديثي:
- «للدرجة دي نسيتي اللي ما بنا؛ أنا بحبك!»
- «أنا ما نستش حاجة، بس دينّا ماقلناش نعمل كده».
- «أنا كنت خايف عليكِ؛ خايف تضيعي مني».
- «أنت لو كنت خايفَ عليا فعلًا؛ كنت حافظت عليا، مش عرضت سمعتي للخطر».

- «لو كنت عملت كده كان حد غيري صارحك بحبه، وكان هيبقى مستحيل تتجوزيني وأنتِ بتحبي غيري».
- «وتفتكر كده استغفر الله بنضغط على ربنا إننا نتجوز، لو ربنا مش عاوزنا نتجوز مش هيحصل، ويمكن يكون فيه حد غيرك حبني وخاف ربنا وربنا كتبني ليه».
- «يعني إيه يا مي!»
- «يعني أنا متمسكة بيك بس في الحلال، أنا رفضت كل العرسان اللي اتقدموا لي؛ تعالى واتقدم لي».
- «أنتِ بتهزري أكيد! أنا مش جاهز».
- «لا أنا بتكلم جد؛ أنا مش هاغضب ربنا ولا هاصغر أهلي عشانك».
- «خلاص هاجي اتقدم واشرح لهم ظروفي، يمكن يقدروا».
- «هدعي إن احنا نكون لبعض».
- «يا رب».

غادرت مي بعد أن شعرت بخفقان في قلبها وخوف وحزن يلازمها من أن يغلبها الشيطان فتعود إلى حياتها السابقة؛ فتدعوها نفسها للكلام مع رامي وتحلله كأكثر فتيات العصر تحت مسمى الحب.

أقوم بالاستعداد وتهيأت نفسي لزيارة والد مي بعد أن أخذت موعدًا منه، أتأهب للرحيل وحدي دون أن أصطحب أحد معي، حتى والدي لم أبلغها بتلك الخطوة لمعرفتي ردها مسبقًا.

يستقبلني والد مي بالترحاب، ثم يدور الحوار بيننا عن ظروفي المادية وحالتي الاجتماعية، انتهى الحوار بيننا بحكمي على نفسي بأنني لو كنت مكان والدها ما وافقت على نفسي؛ على الرغم من كم الالتماسات التي التمستها إليه؛ بأنه سوف يتحسن حالي عما قريب ولكن دون جدوى.
أعود إلى منزلي خالي الوفاض أو كما يقولون رجعت بخفي حنين؛ لم أخذ منه سوى الرفض وكان هذا الرفض منطقي أكثر من الزيارة غير المنطقية لدرجة كبيرة؛ شخص لا يملك قوت يومه ويذهب للزواج!
يدخل والد مي عليها الغرفة فيحدثها عن رامي وعن سبب رفضه، حزنت الفتاة فكانت على أمل لإعطائه فرصة لإثبات نفسه؛ فتقول بوجهٍ مكفهر:
- «أنا مش هعترض يا بابا، بس مش هتجوز غصب عني».
وافقها والدها موافقه مبدئية على رأيها، وعلى أنه ليس الأب الذي يرغم بناته على الزواج من شخصٍ لا تريده، مرت الأيام بعد سلسة من الرفض لأي عريس يتقدم إليها حتى جاء مروان ٠٣ عام مهندس مدني، عاش أكثر من خمس سنوات في الخليج، واستقر به الحال في مصر السنتين الأخيرتين، بحث فيهما عن عروس حتى وقعت عيناه على مي منذ أشهر قليلة، لكنه لم يتقدم إليها أول الأمر، ولكن أخذ يجمع معلومات عنها، وأشد ما أعجب

به التزامها الديني الذي يتوافق مع التزامه هو الآخر.
رحب والد مي بمروان الذي بين له سبب الزيارة، وشرح له منذ أن تخرج وعانى حتى وصل إلى ما هو عليه من حالة مادية واجتماعية؛ زاد ذلك من إعجاب والد مي به وطلب منه عرض الأمر على صاحبة الشأن أولًا ومن بعدها إبلاغه.
وكل والد مي زوجه لعرض الأمر على ابنته، بعد أن شرح لها الموقف ومدى تمسكه به من الناحية الأخلاقية وطريقة معاملته؛ بأنه نموذج للشاب المجتهد وليس كمن حضر قبله.
طرقت والدة مي الباب ثم همت بفتحه فتوقفت قبل أن تتجاوزه قائلة:
- «أنتِ فاضية يا حبيبتي؟»
كانت مي في ذلك الوقت تقرأ القرآن فصدقت، ثم أغلقت المصحف ووضعته على الخوان المجاور للفراش وقالت مبتسمة:
- «اتفضلي يا ماما».
اقتربت الأم من الفراش، فجلست عليه ثم اعتدلت في جلستها حتى أصبحت مقابلة لابنتها فأمسكت يديها وتابعت:
- «جايلك عريس».
سحبت مي يديها برفق وتبددت ابتسامتها؛ ثم قالت

بوجهٍ واجم:
- «ماما أنا اتفقت معاكم، رفضتوا رامي مش مشكلة بس أنا ما بفكرش في الجواز».
- «طيب يا مي مش عاوزين منك غير إنك تصلي صلاة استخارة وفكري، وربنا يقدم اللي فيه الخير».
- «ماشي يا ماما».

الفصل الثالث والعشرون

أتدارك موقفي المعقد في الحياة العملية والاجتماعية، تتردد كلمات أمجد في أذني بأنني لن أصل إلى أول درجات سلم النجاح سوى بالتعب والجهد وحبي الشديد لمي، الذي أعطاني الدافع للاجتهاد والتصميم على بلوغ غايتي، أبدأ بالفعل في البحث عن فرصة عمل على الرغم من أنني لا أتوقع نفسي في أي وظيفة من الوظائف المتاحة، ولكن ما كان يصبرني حقًا أنني لطالما سمعت جملة: «لا أحد يعمل بشهادته». أرسل سيرتي الذاتية التي لم تحو الكثير من المعلومات؛ فلم يكن هناك خبرة كافية ولا تقدير مناسب، ولكن حاولت أن أضع لنفسي خبرة بالعمل دون شهادة تثبت صحة قولي حتى لا أشعر بالحرج بين المتقدمين للعمل.
أنتظر الرد من أي شركة من الشركات الكثيرة التي أرسلت

لها السيرة الذاتية للعمل ولكن دون جدوى. أشعر بالسوء لذلك، أجلس في حجرتي وحيدًا أفكر في طريقة سريعة للعمل؛ لعلي ألحق بركاب الزواج من مي.
تدخل أمي الحجرة بعد أن آذن لها بالدخول وعيني مثبتة على شاشة الحاسوب، تبدأ والدتي بالحديث معي ولكن وهي في حالة مبهجة فتقول:
- «عندي ليك خبر حلو».
أرد عليها وما تزال عيناي مثبتتان على شاشة الحاسوب:
- «خير يا ماما».
- «خالك مصطفى جاي من السعودية آخر الأسبوع».
لم أكترث لما تقول على الرغم من شدة تعلقي بخالي، ولكن لم يكن الوقت المناسب لإظهار مشاعر خادعة لحالتي التي أبدو عليها؛ فأجيبها بفتور:
- «بجد».
تلاحظ والدتي ذلك الفتور غير المتعمد لتجيبني متسائلة:
- «إيه يا رامي شايفاك مش فرحان؟»
- «لا أبدًا يا ماما، بالعكس».
- «طيب يا حبيبي، شكلك مشغول، أنا هاسيبك دلوقت».
تخرج أمي لتتركني في دوامتي وتفتيشي المتواصل عن العمل، والبحث عن أول درجات النجاح، بعد خروج والدتي من الحجرة بدقائق، تلقيت اتصالًا هاتفيًا من رقم مجهول؛ أجيب عليه متسائلًا:

- «مين حضرتك؟»
يرد الشخص المتصل بصوت أجش ذي طابع رسمي، ليعرف نفسه على أنه تابع لإحدى الشركات التي أرسلت إليها ملفي، ثم أعطاني بعض البيانات من سيرتي الذاتية؛ للتأكد من صحة الرقم، وافقته على ما قال، انتهت المكالمة بتحديد مقابلة شخصية يوم الثلاثاء القادم.
أنادي على والدتي بحماسة شديدة فأسألها قائلًا:
- «ماما النهارده إيه؟»
تجيبني مندهشة:
- «الحد يا حبيبي، ليه!؟»
- «لا أبدًا يا ماما مفيش حاجة».
تعود أمي إلى ما كانت عليه، فأعود إلى حماستي وسعادتي بتلقي ذلك الاتصال، والذي أشعر أنه باب الخير بالنسبة إليّ؛ أحدث نفسي بأنها الفرصة التي يجب ألا أضيعها، أنجرف في عالم التخيلات والأحلام حتى أستيقظ على واقع وسؤال لم أطرحه على نفسي من قبل، هل يقبلون بشخص مثلي ليس خبير في عمل المقابلات الشخصية؟ بل أنني لا أعرف عنها شيء! وماذا أحتاج حتى أكون مؤهلًا وجديرًا بالوظيفة؟ فهذه أول مقابلة شخصية في حياتي سيتم عملها.
أبحث عن أشياء تتعلق بهذا الأمر، وأقوم بتدوين جميع الملاحظات، أجتهد بشدة حتى لا أفقد عمل سيق إليّ

بمجرد كلمات بسيطة أستطيع قولها.
الثلاثاء يوم المقابلة
أستيقظ بعيد السابعة صباحًا أشعر بالتوتر الذي فرض نفسه عليّ؛ أرتدي قميصًا أبيض وبدلة سوداء بالإضافة إلى ربطة عنق رفيعة ذات لون أسود، أترك منزلي متجهًا إلى مقر الشركة التي حددت معي الموعد، أشعر بعيون ترمقني ولو أنني تركت بيتي دون أن أرتدي شيئًا لخفت الأبصار عني؛ ولكن زاد ذلك من توتري وتلعثم خطواتي؛ استقل تاكسي يوصلني إلى باب الشركة دون الحاجة إلى أتوبيس الشعب وضحكات الناس ونظراتهم التي لا ترحم.
أقف أمام باب الشركة فأنظر إليها أتأملها لبعض ثوانٍ، ثم أمرق إلى الداخل، بدا المكان هادئًا؛ لا تسمع فيه سوى صوت مكيفات الهواء، حتى أنه قد خلا من الناس فلا أجد أحد أمامي، ألتفت يمينًا ويسارًا وأجول بعيني باحثًا عن أحد أحدثه حتى وجدت فتاة تعمل بالشركة تقبع في الركن البعيد، عن يساري وراء مكتب يواري جسدها، فلا يظهر منها غير جزء بسيط من رأسها؛ أتجه إليها واثق الخطى حتى أصل عند رأسها؛ لأسألها عن الوظيفة الخالية لديهم وأذكر لها الاتصال الذي تم بيني وبينهم منذ يومين؛ تطالبني بالجلوس لحين وصول مدير الشركة.

أتجه إلى الكرسي لأجلس عليه متنظرًا وصول المدير؛ كما أبلغتني الموظفة، بعد دقائق قليلة من جلستي يذهب عقلي بعيد في رحلة من تخيلاته اللا محدودة، والتي تمنعني كثيراً عن النوم، أما الآن فهي تمنعني بشكل كبير من الملل؛ أحدث نفسي عن أي وظيفة من الممكن أن أحظى بها في شركة تسويق؟ فمن الممكن أن أكون سكرتير، أو مدير للشركة، أبتسم من أثر الفكرة الأخيرة، ولكن أتراجع عنها دون أن أتراجع عن ابتسامتي، فظلت ترتسم فوق شفتاي: «لا مدير صعب شوية». يقطع شرود ذهني نداء الموظفة لتخبرني بوصول المدير، واستدعائي لعمل المقابلة في مكتبه.

أقف أمام باب مكتبه وشعور التوتر يجتاحني والقلق يسيطر عليّ، ولكن سرعان ما أرفع وجهي عاليًا وأمد يدي اليمنى لتعبث بطرف بدلتي لليد اليسرى فأجذبها وأعاود النظر إلى جسدي فأخذ نفسًا عميقًا ثم أرفع رأسي للأعلى لأزفره؛ فكنت بذلك أستمد ثقتي من حركاتي الغريبة التي لا تعني شيء لأحد سواي، أطرق الباب برفق؛ فأسمع صوتًا يسمح لي بالدخول، أمرق إلى الداخل.

لم يكن مكتب كبير مثلما توقعت؛ المدير شاب في الأربعين من عمره، شعره الأسود يتخلله بعض الشعيرات البيضاء، لا أظنه مشيب ولكن أرجحه توتر وخوف بسبب طبيعة

عمله، ومن الممكن أن يكون عنده مرض الضغط والسكر أيضًا.
ألقي إليه السلام فيقوم برده ثم يطالبني بالجلوس.
بعد ذلك يطلب مني تقديم نفسي، ومن ثم تتابعت الأسئلة.
بعد انتهاء الحوار الذي دار على هيئة أسئلة أستقبلها بتوتر لأجيب عليها بتوتر مضاعف وأحيانًا لا أجيب.
أسمع تلك الجملة التي أعرف معناها جيدًا: «هنبقى نكلمك تاني».
أدرك حينها أنني لن أعمل بهذا المكان؛ فهذا يعتبر رفضًا ولكن بطريقة متحضرة.
تعلمت في ذلك اليوم درسًا؛ بأن لا أضع آمال كبيرة على شيء لست واثقًا من تحقيقه.
أعود إلى منزلي بخيبة أمل جديدة؛ يمر ثلاثة أيام حتى تأتيني والدتي فتقول وهي منتشية من الفرح:
- «رامي، رامي؟»
أجيبها بفتور:
- «عاوزة حاجة يا ماما؟»
- «خالك مصطفى جه من السفر وعاوز يشوفك».
- «خلاص هاعدي عليه كمان ساعة».
- «بس أهم حاجة تسمع إلى هيقول لك عليه كويس».
- «ماشي يا ماما، بس حضري الأكل».

بعد تناول الطعام. أقوم بتغير ملابسي وأتجه إلى منزل خالي.
خالي مصطفى يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، لديه طفلان محمود وسعد، بعمر التاسعة والسابعة على الترتيب، تزوج في سن كبير، لم يجد فرصة عمل فقرر الهجرة والعمل في الخارج، وأصبح لديه الكثير من المال.
أصل إلى المنزل ثم أطرق الباب حتى أجد محمود ابنه الأكبر أمامي؛ ابتسم إليه ثم أقول متسائلًا عن حاله:
- «ازيك يا محمود عامل أيه؟»
يجيبني مبتسمًا:
- «الحمد لله».
- «خالي موجود».
- «أه موجود؛ أدخل وأنا هبلغه إنك وصلت».
يذهب محمود إلى الداخل وما هي إلا ثوان، وكان خالي مصطفى قد حضر أمامي فاتحًا ذراعيه ليستقبلني؛ اتجهت إليه فاحتضنته بشدة؛ علاقتي بخالي كانت قوية قبل سفره وأثناء سفره أيضًا، كنت أحدثه كثيراً عن طريق النت، ولكن انشغالي الفترة الأخيرة جعلني ابتعد قليلًا عن محادثته.
يطلب مني الجلوس؛ فأجلس قبالته لينظر إليّ ووجه يتكلم دون صوت، ولكنني أسمع لتعابير وجهه حديثًا حتى أنقطع الصمت وجاء الصوت الفعلي؛ ليتوافق مع

تعابير وجهه؛ فقال متسائلًا:
- «أنت خلصت يا بطل، ما فكرتش تشتغل؟»
- «والله يا خالي أنا بدور على شغل ومش لاقي».
- «ولا هتلاقي في البلد دي شغل خالص».
- «ليه الإحباط ده!»
- «مش إحباط ولا حاجة يا ابني، بس لازم تفكر بره الصندوق، كام واحد أتخرج زيك ومش لاقي شغل».
كان محقًا في قوله ولكن ما العمل! كنت أحدث نفسي.
- «إيه كلامي غلط؟»
- «لا طبعًا يا خالي، كلامك صح بس أعمل إيه!»
- «ما تعملش حاجة، أنا عندي ليك فرصة سفر كويسة جدًا؛ أنت عارف أنا أجازة وراجع تاني كمان شهر تقريبًا؛ أنا عاوز ردك قبل ما أسافر».
- «هاشتغل إيه بس؟»
- «مدرسة ابتدائي، هتشتغل فيها وقبل ما تشتغل هتاخد كورس هناك، هتفهم كل حاجة وممكن تدي دروس خصوصية لأي حد، يعني شغلانة محترمة ومرتب كويس جدًا أي شاب يتمنى يكون مكانك».
- «فعلًا يا خالي، بس أنا ما بفكرش في السفر».
- «من غير ما أعرف ردك؛ قدامك شهر تقريبًا جرب تشتغل وفي النهاية قل لي ردك إيه؟»
- «حاضر يا خالي».

أغادر شقة خالي والتفكير يعذبني، أأقبل بالوظيفة وأتقدم لخطبة مي وأترك أمي وحيدة؟ أم أظل بجوارها وتضيع مي مني نهائيًا؟ ماذا تخبئ لنا الأيام!

الفصل الرابع والعشرون

بعد ثورة من التفكير، أقرر قبول الوظيفة والتقدم لخطبة مي، ولكن كيف أبلغها بذلك؟ أتذكر صديقتها ياسمين فأرسل إليها لأحثها على الذهاب إليها وإبلاغها بما جد؛ أنتظر جوابها في أي موعد ستذهب وتأتيني بالرد، لكن أتاني الرد سريعًا؛ فبعد لحظات أرسلت إلى رسالة تقول فيها:

- «أنت ما تعرفش اللي حصل؟»

أتعجب من سؤالها وأشعر بالقلق منه فأكتب إليها:

- «إيه إلى حصل؟؟؟» تتبعها علامات استفهام لأستعجلها في الرد.

- «مي فرحها الخميس الجاي».

أشعر بالصدمة التي أعجزتني عن التفكير أو حتى

التصديق فمن المؤكد أن هناك خطأ في الأمر.
- «أنتِ بتهزري أكيد! ازاي ده حصل!»
- «أنا آسفة يا رامي، ما كنتش عاوزة أقول لك».
- «هتتجوز مين؟»
لا تجيب؛ بعد مرور دقيقتين يأتيني رسالة منها برابط فيس بوك أضغط على اللينك ليظهر أمامي صورة واسم هذا الشخص، مروان محمد، ٣٠ سنة، مهندس بترول، أتجول في صفحته الشخصية وأنا أنزف دم جراح الذكريات الجميلة بيني وبينها.
أشعر بالإحباط الشديد، أفكر في رفض السفر؛ فلم يعد هناك حاجة للسفر الآن، لكني أأجل ذلك القرار المتسرع حتى انتهاء المدة؛ فمن الوارد أن أغير قراري.
القهوة ذلك المكان الذي تمنيت أن أكون فيه بعيد عن البشر؛ ليس هناك وعد صادق؛ من اشتريته اليوم غدًا سيبيعك، أتذكر كلام أمجد؛ يجب أن تعود نفسك على الوحدة فحتمًا سيأتي اليوم الذي يتخلى عنك فيه أقرب الناس إليك، وهذا هو الدرس الثاني الذي تعلمته متأخرًا، أما الدرس الثالث أنني ما زلت لم أتعلم شيئًا بعد.
أفتح الفيس كل يوم لأتجول في صفحة مروان، كانت تلك عادتي مؤخرًا، وكأنني أنتظر شيء أود ألا يحدث ولكن حتمًا سيحدث، وجاء اليوم الموافق لتوقعي المخالف لرغباتي يوم الخميس، أقرأ كلمات التهنئة بقلب مفتور؛

فأغلق الفيس وأحاول أن أنام فلا أستطيع، تمر الساعات وينقضي أسوأ أيام حياتي ليأتي الذي يليه؛ في اليوم التالي أجد صورة تجمعهما، ويبدُ على مي الفرح والسعادة؛ لم يكن حبًا يا مي، لم يكن كذلك، سميه كما تسميه، ولكنه لم يكن حبًا صادقًا، كان مجرد تعود على شيء أو أنه لم يوجد بديل، فعندما وُجد البديل استُبدلت أنا، تُركت حزينًا، والابتسامة على وجهك دون الاكتراث لما خلفتيه وراءك؛ جريح يقطر دمًا، وجرح لن يندمل ما طال الزمان، لم يعد للحياة وجود بالنسبة إليّ، فقد حُرمت من لذة الطعام والشراب؛ فلم أتناول شيء رغمًا عني وحُرمت أيضًا من أبسط الأشياء، النوم، الذي جفل عيوني لثلاثة أيام.

أجلس في الغرفة وحيدًا وسط كثة من الظلام، فيدخل والدي الحجرة مبتسمًا ثم يقول متسائلًا:

- «عامل إيه يا رامي؟»

أتعجب مما يحدث ولا تفارق الدهشة نبرتي؛ فأقول متعجبًا:

- «بابا! أنت ميت!»

يعود إلى ابتسامته الجذابة ثم يتابع حديثه:

- «أنت اللي فكرت فيا».

- «مش عارف يا بابا، أعمل إيه! أنت عارف حالي، أنصحني!»

- «أنزل واختلط بالناس، بس اعتزلهم».
- «ازاي يا بابا؟»
- «أعمل اللي أنت عاوز تعمله وما تخافش».
- «بس... روحت فين؟»
يختفي والدي وسط الظلام الذي ابتلعه دون أن أكمل كلمتي، لم أكن في كامل تركيزي لمعرفة مقصده؛ ولكني تركت شقتي تنفيذًا لكلماته لأتجول في الطرقات.
أهيم على وجهي لا أعرف إلى أين أذهب! أصل عند تقاطع إحدى الطرق لأجد رجل يعدو ومن خلفه تمساح يتبعه، وآخر يطارد أسد، وهناك تجمهر في الجهة الأخرى؛ أذهب إلى الجمع لأرى ماذا يحدث؛ أرى رجلًا متسخ الوجه والملبس، لحيته تصل إلى صدره، يرتدي عباءة خضراء مهترئة، ويمسك بيده عصا غليظة.
أترقب عن كثب ماذا يحدث، ولما كل هذا التجمهر؛ لكني أدرك سريعًا سبب كل هذا الضجيج؛ فالرجل يدعو الناس إلى فك السحر والنحس عنهم، وجلب المال والبركة؛ ذهب شاب حزين إليه فعاد يضحك وفي يده حقيبة سوداء تتساقط منها النقود؛ أتعجب مما يحدث، أنظر بجانبي لأسأل إحدى الواقفات ماذا يحدث! تنظر إليّ لأرى وجهها بعد أن كان مبهما بالنسبة إليّ؛ فأجدها والدة أمجد؛ تقول لي وهي تضع يدها لتربت على منكبي: «أذهب يا رامي، لعله يفك نحسك». أخذ خطواتي نحو

الرجل دون تردد وعندما أصل إليه لا أجده ولا أجد أحد من الواقفين.
أقول لنفسي بصوت مسموع:
- «إيه اللي بيحصل ده؟»
يأتيني الجواب من شخص يقف بجواري:
- «أنت بس إلى ما نمتش كويس؟»
أنظر إليه لأجده إبراهيم صديقي؛ أقول مندهشًا:
- «أنت جيت منين؟ أنا جيت لك!»
لم أسمع لسؤالي جواب، أنظر حولي فلا أجد أحد؛ أشعر بأنه من الأفضل العودة إلى المنزل في أقرب وقت.
أصل منزلي فأمرق إلى داخل غرفتي، لأجد والدي يجلس على كرسي المكتب.
أوجه إليه حديثي متسائلًا:
- «كنت تقصد إيه بكلامك؟»
يجيبني بهدوئه المعهود:
- «أنت اللي تقصد؛ أنا مجرد فكرة نابعة من خيالك؟»
- «أنا أقصد إني أروح القهوة صح؟»
تدخل والدتي فيتبدد والدي في الظلام؛ تقول متسائلة:
- «ما لك يا رامي؟»
أجيبها بضجر:
- «مش عارف أنام».
- «أقرأ سورة الملك واستغفر ربنا هتلاقي نفسك نمت».

أفعل ما أملته عليّ أمي دون أن أعرف هل هذا مجرد خيال نابع من عقلي أم أنه حقيقة وهذه أمي بالفعل.
أنام في النهاية بعد أن أفعل ذلك، دقائق لم أقدر الزمن إلا بها، حتى شعرت بانسياب روحي من جسدي؛ فهناك من يسحبها للخارج دون أن أراه؛ لم أستطع المقاومة لشدة إجهادي، أو أنني لم أرغب في المقاومة، ولم أرغب في الحياة بشكل عام؛ فقد كان شعوري حينها بأنها النهاية، إنه الموت الذي أنتظره حقًا؛ تخرج روحي من جسدي دون أن أشعر بألم، ولكن كنت أشعر بشعور مختلف لا أستطيع وصفه، أنظر إلى الحجرة لأجدها كما هي في الحقيقة؛ الكرسي، السرير، السجاد؛ كل شيء في مكانه لم يتغير حتى ملابسي، أخرج من باب الحجرة متجهًا إلى الصالة؛ فأجد والدتي تشاهد التلفاز، أحاول أن أقترب منها وأحدثها ولكنها لا تسمع مني شيء سوى شعور؛ شعور بسيط انتقل إليها أن ابنها في المكان، تتجه إلى الحجرة الخاصة بي لتطمئن عليّ، والغريب أنني لم أر جسدي، ولكن علمت أنني موجود؛ وذلك بسبب الارتياح الذي لامسته على وجهها، تعود إلى الصالة مرة أخرى؛ لتكمل مشاهدة التلفاز، أخرج من باب الشقة متجهًا إلى منزل مي مستغلًا روحي التي لا يراها أحد.
أمرق إلى داخل المنزل لأجد مي جالسة في غرفتها بصحبة عائشة يدور الحوار بينهما.

تقول عائشة بحماسة:
- «طمنيني قبلتي العريس اللي أتقدم لك ولا لا؟»
ترد عليها مي بتردد:
- «مش عارفة، أنا صليت صلاة استخارة».
- «وإيه النتيجة؟»
- «الحلم طلع زي الحقيقة بالضبط».
- «ازاي؟»
- «يعني ما كنتش أعرف عنه حاجة؛ عرفت اسمه وسنه وشغله، حتى شكله اللي عمري ما شفته، شوفته في الحلم وأنا لابسة فستان أبيض وهو بيقول لي ربنا يقدرني واسعدك، كنت حاسة إني فرحانة».
- «يعني أعتبر دي موافقة؟»
- «مش أوي؛ لما يجي تاني وأشوفه يمكن يكون كل ده غلط».
- «إن شاء الله خير».
أترك الغرفة متجهًا إلى الريسبشن؛ لأجد مي جالسة على الكرسي المقابل لمروان ووالدتها تجلس بجوارها بينما يجلس والدها بجواره.
وجه مروان حديثه إلى والد مي بشيء من الخجل؛ فقال:
- «أنا يشرفني يا عمي أطلب إيد بنتك».
يبتسم والد مي بعد أن ينظر إلى ابنته وهي تبدي موافقتها فيبدى هو الآخر موافقته.

أسمع صوت الزغاريد تنطلق من داخل المنزل، وتجمعات من الأقارب لم أكن قد رأيتهم من قبل إلا وليد هذه اللحظة، تبدلت الملابس وأُعدت الزينة وتفجرت ينابيع الفرحة في المكان.
أخر ما أنظر إليه ابتسامة مي وخجلها وهي تمد يدها لمروان ليضع فيها خاتم الخطبة.
أستيقظ بعد مرور أكثر من ٥١ ساعة، لا أتذكر من حلمي شيء سوى ابتسامتها وحزني.
الفصل الخامس والعشرون
أدرك تمامًا أنه لا سبيل لدي سوى الابتعاد قليلًا عن ذكريات الماضي، وخلق جو من الراحة النفسية للتفكير في مستقبلي، أو الابتعاد عن الحياة بشكل عام، فلم تعد الحياة بالنسبة إليّ كما كانت؛ فقدت حبيبتي، وكذلك أصدقائي لا أعرف عنهم شيء، لم يعد يسأل أحد منا على الآخر؛ كلٌ في همومه وأحزانه، لم يبق معي سوى نفسي التي تؤلمني في كثير من الأحيان؛ فتذكرني بما حدث وبالمتغيرات التي طرأت على حياتي خلال أشهر بدلت الحال، وغيرت ينابيع الفكر الذي تغير بحزن ران على قلبي، لا يبدده سوى الموت أو أن أتناساه بالعزلة، التي فرضتها على نفسي من جهة وفُرضت عليّ من جهة أخرى.
أتجه صوب القهوة، ذلك المكان الذي ذهبت إليه من قبل مع صديقي أمجد؛ أشعر بأنه من الممكن أن أجد

الراحة في تلك البيئة التي تشبهني كثيراً؛ فشعوري بأنني لست فريدًا من نوعي يروق لي، فلا أكون حزين وسط أناس سعيدة، ولكني حزين وهم كذلك مثلي، في هذا المكان أيضًا لا يوجد من يستهين بشعورك أو يقول لك أنت أفضل حال من غيرك، بل كل في ملكوته.
أمرق إلى الداخل عبر باب القهوة ذي الزجاج الأسود، أتجه إلى أحد العاملين في المكان والمختص بتسجيل استمارات الدخول للمكان الداخلي، سمين الجسد متشاحم، ذو وجه مقطب لا يبتسم؛ ذلك العبوس الذي رسم على صفحة وجهه العريضة طوال الوقت لا يدل إلا على خبرته في الحياة، يرتدي بنطال أسود وقميص أسود مكتوب عليه من الجهة اليسرى العميل رقم ٥، أرفع يدي بالتحية، ثم أتبعها طالبًا بنبرة فاترة:
- «عاوز استمارة للمكان الداخلي».
لا يجيبني العامل ولكن يحني رأسه أرضًا ليعبث في أحد الأدراج السفلية للمكتب الجالس عليه؛ يخرج ورقة من بين عدة ورقات متشابهة، فيضع الورقة أمامي وفوقها القلم، ثم يشير بيده لعامل آخر فيحضر.
ألتقت القلم وأبدأ بكتابة اسمي وعنواني ورقم هاتفي، وبعض الملاحظات وكذلك الموعد الذي أحب التواجد فيه، أنهي ملء الاستمارة وأضع فوقها ورقة نقدية بفئة ١٠٠ جنيهًا قيمة الاشتراك الشهري.

يمد العامل رقم ٥ يده لالتقاط الاستمارة وأول ما ينظر إليه الموعد.
يرفع ناظريه مصوبهما تجاهي ويقول بلسان متراخ:
- «مفيش مكان فاضي في الميعاد ده».
ينتابني شعور الحزن من هذا الرد، وأنا أعلم أنه أفضل موعد؛ لإخباري مسبقًا بذلك عن طريق صديقي أمجد، وكذلك لا أريد أن ألتقي بأمجد ولا أريد أن يعرف أحد عني شيئًا.
أنظر إلى وجهه العابس المتجهم فأقول متسائلًا:
- «يعني مفيش مكان في الوقت ده خالص؟»
يكتفي الرجل بإماءة من رأسه يهتز فيها لغده معلنًا النفي.
يقاطعنا صوت؛ أنظر بجانبي، إنه العامل رقم ٦ الذي أُشير إليه من قِبل العامل رقم ٥، كان على مقربة منا وقد سمع الحوار الذي دار بينا.
يقول مقاطعا نفي زميله:
- «لا فيه مكان فاضي».
تبتسم أساريري لسماع ذلك، بينما يزاد تجهم وجه زميله الذي يقول محتجًا:
- «فيه ازاي!»
- «العميل رقم٣١ مش جاي تاني».
أتدخل مقاطعًا حديثهما بابتسامة؛ فأقول متسائلًا:

- «إيه مشكلته اتحلت؟»
ينظر إلى العامل رقم ٦ ويقول ساخرًا:
- «أه مشاكله كلها اتحلت، مات امبارح».
أشعر بالإحباط والحزن الذي عم قلبي وارتسم على وجهي.
يتابع العامل حديثه:
- «إيه زعلت ليه! هو مش كده مشاكله تبقى اتحلت؟ هو فيه حل أحسن من كده، تحب تبقي مكانه؟»
أجيبه بلسان متلعثم:
- «لا، لا».
يبتسم إليّ ثم يقول:
- «أقصد تحب تاخد مكانه في القهوة؟»
أزفر أنفاس الراحة ثم أقول:
- «موافق».
بدأ العامل بالسير في المقدمة ممسكًا بيده كشاف صغير للإضاءة يومض أمامنا بنوره الأبيض الذي يكشف عن سلامة مواضع وطء أقدامنا، وأنا من خلفه أتبعه أسير مثقل الخطى؛ أحدث نفسي عن ذلك الشعور الذي داهمني، شعور التناقض؛ تمني الموت للراحة والخوف الشديد من فكرة موتي لا أعرف ماذا أريد حقًا!
نتجاوز الدهليز المفضي للمكان الداخلي؛ فنقترب من بابه الأسود نفتحه ثم نمرق إلى الداخل، المكان شديد

الظلمة لا يوجد لمبات رئيسية للإضاءة ولكن يوجد أشعة ضوء باهتة لا تنير سوى الترابيزات للجالسين عليها، فلولا ذلك الكشاف لتعثرنا في الوصول إلى ترابيزة العميل رقم٣١، أجلس على الترابيزة، بينما يغادر العامل المكان دون التفوه ببنت شفة، أتفحص المكان بنظرات الدهشة المشوبة بالخوف.
الترابيزة مرسوم عليها رأس تشبه رأس الشيطان، سوداء، لديه قرون وناببن، ما بينهما يوجد مكان منحدر به لمبة تشع ضوء أحمر ضعيف، ما وراء الرأس خلفية حمراء.
يوجد أربعة أماكن يحتوي كل مكان على لمبة، كل منها على نفس المسافة للأخرى عند أطراف الترابيزة،
الكراسي سوداء لها شكل غريب في تصميمها؛ أعتقد بأن ذلك كله من أجل طغيان شعور الخوف على شعور الحزن أو أنه لجذب الانتباه ليس إلا، هناك رائحة فواحة تفوح من الحين للآخر، بالإضافة إلى موسيقى هادئة تخلق جو من الراحة التي تمتزج بشعور الخوف، أضيئ جميع اللمبات الأربعة الموجودة عند الأطراف ولا أضيئ لمبة المنتصف.
أشعل سيجارة، فأنتظر لحظات حتى يأتيني أحد العمال ويقدم فنجان القهوة؛ أنظر إلى البخار الساخن الذي يعلو الفنجان؛ يتخيل عقلي أشياء ترسم بعبث أمام عيني، أشياء لا وجود لها، أمد يدي وما يزال الفنجان في أوج

حرارته فأقربه إلى فمي وأرتشف رشفة صغيرة؛ تحرق طرف لساني ولكن أستطيع أن أتذوق طعمه؛ فلم يكن جيدًا بل كان لاذعًا؛ تنجذب جفوني لتواري عيني من شدة مذاقه، ولكن أقرر إكماله حتى أعتاد عليه؛ وإن لم يكن مذاقه جيد، فالحياة تعود وحتى الجيد منها يذهب دون أن يبلغنا فنستعد لرحيله.

الفصل السادس والعشرون

يختلف الناس في الأسباب دائمًا ولكن كثيراً ما يتفقوا في النتيجة، أسباب الحزن تتعدد من شخص لآخر، كذلك مدى استقبالك لها وتأثيرها عليك، الاختلاف في التحمل لا يعني الاستهانة بالأسباب ولو كانت بسيطة؛ فكل واحد يرى نفسه في مأزق ويبرر ما آل إليه، وإن أعطيته سبب أشد لقال هذا أهون؛ فالإنسان بطبعه مهولًا، شكاء، بكاء لنفسه وليست هذه المعضلة فيه، إنما عدم تقبله لأسباب غيره هو مكمن المشكلة.

أطرف ببصري في المكان، أنظر إلى الجالسين وكأنهم شخص واحد أرتسم على وجهه العبوس والتجهم، يستقر ناظري عند ترابيزة العميل رقم٣، أجدها خافتت الإضاءة؛ لإشعال لمبة واحدة فقط وهي لمبة المنتصف دون البقية تعكس على وجهه أشعة حمراء تظهره على أنه جثة، جثة ولكن متحركة ترتشف القهوة دون شعور، جسد هزيل يحمل فوقه جمجمة مدورة ترتسم تحت

عينيها بقعتان سوداوان، وعين لامعة وكأنما تحبس عبرة من زمن بعيد ولا تريد عينه أن تذرفها لأنه يعلم جيدًا أن الناس لا تفهم شعوره وإن فهموا شعوره فلا سبيل لديهم في تغير مسارات حياته.
أكمل رحلة التفتيش في وجوه من حولي، أدير رأسي يمينًا؛ لتقع عيناي على ترابيزة العميل رقم ٥١، شاب يشبه العميل رقم٣ في نحافة الوجه مع اختلاف السن، واللحية الكثة التي تزين وجهه.
وفي الركن البعيد عند ترابيزة العميل رقم ٥٢، يمكث شاب أشدهم اختلافًا؛ لم يكن نحيل الوجه بل كان بوجه طبيعي، ولكن ترتسم الهالات السوداء أسفل عينيه، وكذلك هناك العميلة رقم ٧١، تجلس أمام العميل رقم ٣ بوجه مكفهر وعين متحجرة، تكاد تغادر جسدها من شدة نحافة وجهها، على الرغم من جماله، متشابهون ومختلفون؛ اختلفوا في أسباب الحزن وتشابهوا في النتيجة واختيار المكان؛ الحزن والقهوة، اتفقوا أيضًا على العزلة.
شغوف لمعرفة قصة كل واحد من هؤلاء الأشخاص لأعرف السبب الحقيقي للحزن، وهل هناك جذر عميق للسبب يتحكم في الحزن مع اختلاف السبب؟ هل هناك سبب واحد يتشعب إلى أسباب تؤدي إلى نتيجة واحدة؟ وإن كان كذلك فأي سبب هذا؟ أعتقد أنه المال فهو سبب السعادة والحزن في آن واحد.

أول ما لفت انتباهي لمعرفة هل أنا على صواب أم خطأ؛ العميل رقم٣ يبدُ عليه أنه أكثرهم حزنًا وأشدهم بلاءً، أقرر أن أنتظره في الخارج عند موعد الخروج؛ لأسأله عن سبب حزنه فلا أقدر على سؤاله الآن بسبب قوانين المكان التي تُحرم المحادثات.
يأتي موعد المغادرة، أترقب هذا الرجل عن كثب وأتبعه حتى الخروج من المكان، ثم أنادي عليه فلا يجيب؛ أرجح الرأي بأنه لم يسمعني، أسرع في خطواتي لألحقه ثم أقف أمامه؛ لأستوقفه وأسأله عن سبب حزنه ومجيئه إلى القهوة، ينظر إلى الرجل بعين فاترة ثم يتركني دون إجابة، أعيد عليه السؤال وأنا أتبعه فيظل الرجل صامتًا على هذا الحال لا يبالي لا بالسؤال ولا بالسائل أيضًا؛ أتركه بعد أن أدرك أنه لا جدوى من ذلك، فلو أعدت عليه السؤال للمرة العاشرة فلم أكن لأحصل منه على جواب، أعود إلى المنزل وأنا أشعر بشعور جيد، أشعر بالراحة التي اكتسبتها من المكان؛ أجد من يشبهني فأنا جدير بالعيش مع أشخاص لديهم نفس الشعور ونفس النتيجة؛ وشعوري بعدم الوحدة كان ناتج عن هذا رغم عزلتي، تسيطر عليّ رغبة في الدخول إلى حياة من حولي في هذا المكان ومعرفة أسباب حزنهم، ولكن كيف ولا أحد يجيبني وقوانين المكان لا تسمح بذلك أيضًا!
أتوقف للحظات فتأتيني فكرة، أتجه ناحية المكتب فأخرج

من بين أدراجه قلم وأوراق، أكتب على أول ورقة كلمة القهوة بالخط العريض، ثم أترك القلم يسكن الورقات المتطايرة من أثر الرياح، أتجه إلى فراشي فأستلقي عليه لأذهب بعدها إلى عالم أفضل من عالمي الذي أعيش فيه.
أستيقظ من نومي بعيد الثالثة عصرًا، أجلس في حجرتي لا أخرج منها حتى أسمع صوت طرقات الباب الخفيفة؛ أدعو والدتي للدخول فتدخل وهي تقول معاتبة:
- «إيه يا رامي، أنت زعلان مني؟»
أجيبها بنبرة حزن:
- «أبدًا يا ماما».
- «طيب بقالك يومين مختفي كده ليه؟»
- «زعلان شوية».
- «ممكن أعرف؟»
- «حاسس إني ماليش لازمة في الدنيا، حاسس إن ده مش مكاني، حاسس إن...»
تقاطعني والدتي قائلة وهي تربت على منكبي:
- «ما تقولش كده يا رامي، كل واحد ليه أهمية في الدنيا؛ ربنا ما خلقناش كده وخلاص، المشكلة في الصبر، بكره تبقى أحسن الناس، هي الدنيا كده، ناس بتلمع وناس بتنطفي، المهم لما تلمع حاول ما تنطفيش».
- «أنتِ طموحة أوي؛ الدنيا ما فيهاش غير غني مرتاح وفقير طالع عينه ومش من حقه يحلم بحاجة، مش

حاسس إني فرحت طول عمري، حتى الأوقات البسيطة كنت عارف إنها مزيفة، أنا حبيت واحدة وأنا عارف إنها مش ليا عشان معيش فلوس زي باقي صحابي».
- «يعني المشكلة كانت في الفلوس؟»
- «أه يا ماما، المشكلة في الزمن ده الفلوس».
- «يبقى أنت لسه ما فهمتش الدنيا كويس، ولو بالفلوس يبقى أنت أول واحد هتنكر ده، لأنك هتبقى أغنى الناس وهتفضل برضو زعلان».
أنظر إليها بنظرة فاترة ثم أتجه إلى المكتب فألتقط القلم والأوراق، أغادر المنزل.

الفصل السابع والعشرون
أتجه إلى القهوة فأمرق إلى الداخل وسط أكوام الظلام المحيطة بي؛ أضيئ الكشاف الصغير الذي يعطيني إياه العامل رقم ٦ عند الدخول وينتزعه مني عند الخروج، أجلس في مكاني المعتاد، ثم أشعل سيجارتي، لحظات حتى أُحضرت القهوة، أتذوقها وما زالت لاذعة الطعم، ولكن قد بدا مذاقها أفضل مما كانت عليه؛ ويرجع ذلك للتعود، أخرج من حقيبتي الأوراق والقلم، أنظر إلى العميل رقم ٣ الذي بدا عليه الحزن أشد من أي شخص آخر؛ كان يشعل لمبة المنتصف دون البقية، ولا يتوقف عن التدخين وشرب القهوة.
يجلس عن يمينه العميل رقم ٥١، ويقابله العميلة رقم ٧١، يبدو أن اسمه عصام، وجهه نحيف جدًا لدرجة أن نحافته قد أظهرت عظام وجهه، في الخمسين من عمره، يعمل بتجارة الأخشاب، يبدو أيضًا من نظراته تجاه العميلة رقم ٧١ أنه يكره النساء؛ بسبب خيانة زوجه.
تزوج عصام في أواخر الثلاثين من عمره، لم يرزق بأطفال، زوجته شابة جميلة في أوائل الثلاثين من عمرها.
عندما تقدم لها لم يجد صعوبة من جانب أهلها، ولكن الصعوبة كانت في إقناعها، في النهاية اكتشف أنها أُرغمت على الزواج منه، لكنه لم يعط بالًا إلى ذلك وكأن شيئًا لم يكن.

- «عاوزة حاجة يا حبيبتي؟ أنا مسافر». كان عصام يوجه كلامه إلى زوجته.
ترد عليه الزوجة بوجه مكفهر:
- «أنت كل شويه تسافر وتسيبني لوحدي؟»
- «معلش يا حبيبتي، عندي شغل كتير».
وجه الزوجة لا ينم عن أي علامة من علامات الرضا.
- «يلا يا معلم عصام هنتأخر». قالها صبحي صبي المعلم عصام.
- «خلاص يا صبحي اسبق أنت على العربية؛ على ما أجيب باقي الشنط».
حمل المعلم عصام مستلزمات سفره متجهًا إلى السيارة. بعد أن قطع مسافة تعد بالأمتار، وجه صبحي حديثه إلى المعلم عصام متسائلًا:
- «كان لازم يا معلم نسافر النهارده؟»
يرد عليه المعلم عصام متعجبًا:
- «ليه يا صبحي فيه حاجة!؟»
- «الجو يا معلم مش كويس، وغير كمان إن المعلم رمضان ما أكدش على وصول الخشب، يعني ممكن نسافر على الفاضي».
- «أنت ناسي يا صبحي إننا هنروح نقعد يومين عشان المزاد بتاع أرض الجمال، سوق بس وأنت ساكت».
أكمل صبحي والمعلم عصام طريقهما للسفر.

هاتف المعلم عصام يصدر صوتًا معلنًا عن اتصال؛ فيخرجه من جيبه ويستجيب لنداءاته:
- «ألو، أيوه يا مدحت؟»
- «ألو، أيوه يا معلم عصام، المزاد اتأجل ليوم التلات الجاي».
- «ماشي يا مدحت، خلاص الغي الحجز؛ أنا راجع».
يعود المعلم عصام وصبحي مرة أخرى بعد أن قطعا ربع المسافة، وعند وصولهما استأذن صبحي للمغادرة ويغادر، قبل دخول المعلم عصام إلى شقته سمع صوتًا بالداخل؛ فألقى سمعه إليه.
- «أنتِ متأكدة إن جوزك مش جاي النهارده؟»
- «أه متأكدة ماتخفش، أنت قلبك ضعيف أوي».
يدخل الزوج شقته مسرعًا فيتتبع الصوت الذي ينتهي لرؤية الزوجة الخائنة في الفراش بجوار جارهم الشاب، يهرب الشاب مسرعًا بينما تظل الزوجة الخائنة في مكانها ترتجف من شدة الخوف، حتى أنها لم تقدر على التحدث، صُدم الزوج لما رأى، فأخذ يعدو كالمجنون في الطرقات حتى استقر به الحال عند القهوة.

الفصل الثامن والعشرون
تتقلب الحياة ما بين السعادة والحزن، فحزن واحد قد يمحو ألف سعادة، وسعادة واحدة قد تمحو ألف حزن، ولكن يبقى الحزن كالجرح حتى وإن التأم، فأثره ما يزال حاضرًا.
إن كان المعلم عصام قد ربح مالًا كثيراً واستحوذ على قلوب من حوله، وتزوج بمن يحب واعتقد أن الحياة أعطته ما لم تعطه لغيره، فجاء حزن واحد محا كل سعادة، أنا لست إلا مجرد شخص يكتب دون حقيقة لإثبات شيء واحد فقط أن النتيجة واحدة وإن اختلفت الأسباب، فمن الممكن أن تكتب أنت أيضًا قصة هذا الرجل الحزين؛ لمجرد رؤيتك لعبوس وجهه وتجهم قسماته، وأراهن أن تكون مختلفة تمامًا في الأحداث ومتفقه تمامًا في الشعور.
الساعة العاشرة ليلًا لا أريد الذهاب إلى المنزل، أريد أن أذهب إلى شاطئ البحر؛ أشعر أن هذا ما أحتاجه الآن، أذهب إلى شاطئ البحر، الجو جميل ولكن يميل إلى

البرودة مع مزيد من الهواء الطلق الذي يحرك الأمواج؛ فيسمعك صوت ارتطامها بالصخور، لم يكن الجو غريب عليّ فقد اعتدت على مثل هذا الجو عندما كنت أذهب رفقة أصدقائي، ولكن الآن أنا وحيد أذهب بشعور مختلف عن المرات السابقة، أجلس على الكورنيش أتأمل من حولي من الناس فهناك الكثير؛ كل واحد لا يعني للآخر سوى حيز يشغله، فهناك يجلس شاب وفتاة يبدو أنهما حبيبان ولا أحد يهتم بأمرهما، وهناك عجوز ينشد للشاطئ فيخلق السعادة لنفسه بيده؛ لا أعرف من منا على صواب، وهناك أيضًا الكثير من العائلات، لا يلفت انتباهي سوى عائلة صغيرة تتكون من أب وأم وفتاة صغيرة، تركب دراجة هوائية وهي تشعر بمنتهى السعادة؛ تضحك فتسمعك ضحكاتها من شدة سعادتها، كانت تعدو تجاهي ثم تعود إلى أمها حتى تعثرت بحجر في الطريق؛ أفقدها توازنها لتهوى على قدمها اليمنى ويتعالى صوت بكائها الحاد، إن أخذنا تلك الصورة بأن السعادة للفتاة الصغيرة تعني اللعب والحزن يعني الوقوع على قدمها والحجر يعني سبب المشكلة فكيف الحل؟

كنت أحدث نفسي وأنا أنظر إلى الفتاة التي اتجه إليها والداها في ذعر؛ فأمسكها والدها ثم رفعها عاليًا تجاه صدره ليضمها وهو يطمئنها ببعض الكلمات، بينما كانت

الأم تربت على ظهرها؛ الآن هدأت الفتاة واطمأنت ولكن ليست سعيدة؛ لم تضحك مثلما كانت منذ خمس دقائق، يتركها الأب في حضن أمها ويذهب إلى أحد بائعي الآيس كريم، ثم يعود وهو يحمل الآيس كريم، تنظر الفتاة الصغيرة إليه وقبل أن ينطق بكلمة واحدة ارتسمت الابتسامة على وجهها؛ فأخذ الأب يداعبها بعدم إعطائها الآيس كريم وهي تمد يدها بأقصى ما لديها حتى وصلت إليه؛ فالتقطته وهي تضحك ثم وضعت قبلة على وجنة أبيها، يا لها من فتاة صغيرة لا تفهم شيء، حل المشكلة بالنسبة إليها أبسط مما تتصور يا ليتني مثلها، ولكن منذ زمن كنت مثلها ما الذي تغير! هل السعادة تختفي عند الكبر أم عندما نصل لدرجة معينة من الفهم؛ بأننا نعيش لنموت في النهاية.

كنت أتمنى لو أنني لم أفهم تلك الحقيقة فلربما بقي لدي من السعادة في قلبي ولو القليل.

أعود إلى منزلي، أذهب للنوم مثلما اعتدت أن أفعل، ولكن تستوقفني أمي التي انتظرتني كثيراً لحين عودتي؛ فاعترضت طريقي للنوم؛ قائلة بنبرة آمرة:

- «استنى يا رامي، عاوزة أتكلم معاك شوية».

أجيبها بلسان متراخ:

- «معلش يا ماما؛ عاوز أنام، خليها بكره».

- لا يا رامي دلوقت. أنت إيه اللي حصل لك! أنا مش

هاسيبك تضيع مني».
أبتسم إليها ابتسامة تهكمية لا تكشف عن أسناني ثم أتبعها قائلًا:
- «بقى لي لازمة؛ ما كنتش أعرف».
- «أيوه يا رامي، ما تنساش إن أنت اللي بقيلي».
- «يعني لو كان فيه غيري ماكنش هيبقى ليا لازمة!»
- «لا طبعًا، الأم عندها كل واحد من عيالها ليه لازمة وأهمية، حتى لو كانوا عشر عيال».
- «دي الأم مش الدنيا؛ الدنيا معندهاش حد مهم، غير المهم فعلًا».
- «خالك عرض عليك يسفرك تشتغل بشهادتك وتكون مهم، ولا أنت عاوز تعيش كده!»
- «واسيبك، مش كنت مهم وليا لازمة دلوقت».
- «فيه شعرة ما بين كل حاجة لازم تفهمها؛ مش معنى أنك تشوف مستقبلك وتسيبني أنك مش مهم عندي، بالعكس أنا عاوزة كل الناس تشوفك زي ما أنا شيفاك».
- «مش فارقة يا ماما، على العموم أنا لسه ما قولتش رأي لخالي».
- «ماشي يا رامي، أدخل نام وفكر في كلامي».
أدلف إلى حجرتي بخطوات وئيدة وآثار النوم تزين قسماتي؛ فأندس تحت الغطاء ولكن لا أنام، أنشغل بحديث والدتي؛ فكيف أنني أرى الناس من حيث الغنى

والفقر وأمامي الفرصة لأكون غنيًا ولا أتشبث بها! أحقًا أنني من ارتضيت لنفسي هذه الحياة! هل طبيعة الإنسان أن يحب دائمًا أن يرى نفسه مظلومًا، وإن كان عكس ذلك، هل الحزن من طبيعتنا أيضًا؟ لا أعتقد ذلك، الفتاة الصغيرة كانت تضحك فتلك طبيعتها، الحزن من المؤكد مكتسب وليس بطبيعة، أتذكر موقف الأب تجاه فتاته الصغيرة لم أكن أفهمه من قبل إلا وليد هذه اللحظة، لماذا لم يعط الأب الطفلة الآيس كريم؟ ولماذا حاولت الطفلة الوصول إليه على الرغم من أنها لو انتظرت ثوانيَ لأعطاها والدها الآيس كريم دون تعب أو مشقة؟

لا بد أنه يريد أن يعلمها شيء؛ بأن تتعب قليلًا للوصول إلى ما تريد، وأعتقد أنها أكملت مد يدها بكل قوة لأنها كانت تبتسم كانت سعيدة، السعادة هي من تخلق النجاح، وليس النجاح هو من يخلق السعادة، وإن أردنا أن نكون أكثر دقه فهي عملية مترابطة، السعادة تعطيك جو مهيأ للنجاح، والنجاح يؤدي بك إلى السعادة، إن غابت السعادة توقف النجاح، أما السؤال هل أنا مظلوم أم لا؟ أعتقد أنني لم أقم بأي محاولة لإثبات أحقيتي في أن أكون ذا أهمية أو غنيًا، إن كنت أقيسها بالغنى، ولكن النفس لا تنظر إلا لغيرها في السعادة والغنى، وتتجنب النظر إلى ذات النفس إن أصابها مرض أو فقر أو حزن؛ لتنظر إلى غيرها وهكذا وإن اغتنت بقدر ما اغتنت وإن

سعدت بقدر ما سعدت، ستظل تلك طبيعة لا يملكها إلا من رحم ربي.

الفصل التاسع والعشرون

يوم جديد من أيام القهوة، لم تتغير الوجوه، لا لأصحابٍ غيرها، ولا لشعور سعيد قد طرأ عليها، أتساءل دائمًا، هل هذا المكان مُسكن للأحزان أم أنها خدعة اختلقتها النفس للهروب من حل المشكلات؟

سمعت عند الصغر جملة تتردد في أذني إلى الآن: «كل مشكلة وليها حل»، وعندما كبرت علمت أنها الحقيقة والكذب في نفس الوقت؛ هناك الكثير من الحلول للمشكلة الواحدة، ولكن قليلًا منها أو يكاد يكون منعدم ما هو مناسب لها، فنرضى بالحل غير المناسب رغمًا عن أنفنا.

العميلة رقم ٧١، تجلس أمام العميل رقم ٣، مشعلة ثلاث لمبات عند أطراف الترابيزة؛ من الواضح أنها جديدة بالمكان، حلوة الهيئة، ممشوقة القوام، ولكن يبدو عليها الحزن والتعب، الذي تمثل في الهالات السوداء الموجودة أسفل عينيها وبروز عظام وجهها، أعتقد أنها تدعا قمر.

لدى قمر خمسة أخوة هي أكبرهم سنًا، عاشت في الحياة

لغيرها فلم تنعم بالراحة أبدًا؛ استيقظت ذات يوم على خبر موت والديها في حادث، ومنذ ذلك الحين وهي أم وأب لإخوتها الخمسة.
تدخل فاطمة أخت قمر التي تليها سنًا عليها؛ فتقول مقطبة:
- «قمر، ليه مش عاوزة تقابلي عريسك؟»
تضحك قمر ضحكتها التهكمية ثم تتبعها؛ قائلة:
- «أوام خلتيه عريسي، لا يا ستي أنا مش هاتجوز دلوقت».
ترد عليها فاطمة بنبرة تنم عن حزنها المكبوت داخل صدرها:
- «ليه يا قمر، يتقدم بيكِ العمر وممكن تكون دي أخر فرصة ليكِ».
قالت فاطمة تلك الكلمات محاولة تنبيه أختها ثم غادرت الحجرة، بدا على وجه قمر الامتعاض من كلام أختها فاطمة، فهي محقة تمامًا؛ فقد أفنت شبابها في تربية إخوتها ونسيت أن لديها حق على نفسها، تمر الأيام والحزن يخيم على وجهها وقلبها؛ فهي لم تحظ بالزواج مثل باقي أقرانها، وكم تمنت أن تكون أمًا ذات يوم، حتى أصبحت أمانيها كسراب الصحراء، لم يفتها سن الزواج ولكن ما أكثر ما تقاسيه في حياتها من أهوال؛ خوفها الدائم على مستقبل إخوتها، وخوفها المستمر من

معاكسات حمودة ابن حارتها والتي لم تسلم منها؛ فلم يكن لها رجل يقف في وجهه واكتفى الناس بنصحه مرة وإلقاء اللوم عليها مرة أخرى، حتى ضجرت من كل شيء، لولا أن إخوتها سيموتون جوعًا ما خرجت من منزلها البتة.

في يوم ما عندما رجعت قمر من عملها، لم يكن الوقت متأخر بالشكل الملحوظ، فقد كانت قرابة العاشرة والنصف، مرقت إلى داخل العمارة التي تقطن بها فوجدت حمودة يقف أسفل السلم ينتظرها يبدو عليه السكر، مد يده ليمسك بها ثم تبعها بمحاولات اعتدائية؛ فصرخت الفتاة صرخةً دوت في أنحاء الحارة حتى سمعها أهلها؛ فأقبلوا نحوها لتخليصها من يده، أقتنع أهل الحارة أن الخطأ عليها فملابسها لم تكن مناسبة وكذلك رجوعها في هذا الوقت؛ أحست قمر بجمرات النار تحرق أحشائها فمكثت في بيتها وانقطع الخطاب عنها، وأخذ أهل الحارة يرمون إخوتها بالكلمات حتى ضاقوا بهم ذرعًا؛ فعادت أختها منة التي تصغرها بخمس سنوات إلى البيت مضجرة محدقة في وجه أختها تلعنها على فعلتها ولا تذكر لها جميلًا، ضاق الحال بقمر حتى هبطت من منزلها عابرة الحارة محاولة تجنب نظرات أهلها التي تنم عن ضعفهم وجهلهم وحقدهم، تهيم على وجهها لا تعرف إلى أين تتجه حتى يستقر بها الحال

عند القهوة.
تبدو الحياة سهلة غضة بالنسبة لمن يعيشها وإن صعُبت عليه الظروف فكل شيء من الممكن تحقيقه، ولكن صعوبة الحياة تكمن في من يعيشون حولنا، فمن الصعب توقع ردود أفعالهم، تسيء إليهم فيحسنوا إليك، تحسن إليهم فيسيئوا إليك، لا تعرف مقياس لهم، حتى عند محاولاتك للنجاح يكونون أشد عقبة تقف في طريقك، فأعتقد أن ذلك المكان –القهوة- الذي لجأ إليه الأشخاص الواجمون التعساء لجأوا إليه لاعتزال أساس المشكلة وليس لحلها، قد يكون حل المشكلة أسهل مما تتصور، ولكن البشر أشد عائقًا من المشكلة، فهل نصل يومًا ما إلى درجة احترام الغير، هل نقتنع أن لكل شخص حياة لا بد أن يعيشها بمفرده دون التدخل في شؤونه، إن كان هناك أكثر من حياة تعيشها، إن كنت تسيء لشخص في حياة وتتطفل عليه فينقلب ليسيء إليك في الحياة الأخرى ويتطفل عليك فهل كنت لتفعل ذلك؟ أعتقد أن إجابتك لا؛ بل كنت سأحترمه ولا أتطفل عليه، لماذا؟ حتى يحترمني في الحياة الأخرى ولا يتطفل عليّ، فإن كانت حياة واحدة فهل تقبل أن ترغم غيرك على العيش مكسورًا مهانًا؟ دعه وشأنه، فلكل منا حياة، ولكن إن تطرقنا إلى سبب نبوع عدم الاحترام والتطفل أعتقد أنه ينحصر في سببين؛ الأول هو ضعف الشخصية التي

أتاحت الفرصة لإهانتها، ولكن ما هو الذنب الذي اقترفه ليستحق من أجله هذا العقاب، وكيف أتت الشخصية الضعيفة؟ هل تربية الأسرة لها الدور البارز، أم الحياة الخارجية هي من أكسبته ذلك الضعف؟ أما السبب الثاني هو سوء سلوك البعض وغياب العقاب، ليس معنى أن شخصيتي ضعيفة أن تسمح لنفسك بإهانتي أو التدخل في حياتي، الخلاصة في ذلك إن أردنا أن نعيد طبيعتنا الفطرية إلى سابقتها فلا بد من تقويم النفس للشخصين ضعيف الشخصية وضعيف الأخلاق المتطفل.

الفصل الثلاثون

أشعر أن الحياة بالنسبة إليّ دائرة تدور دورتها لتعيد ما بدأته، أين النهاية! هل تكون عند الموت؟ هل نعيش لنموت فقط! أشعر أن تلك الأحداث التي أمر بها قد مررت بها من قبل، ولكن في أي عصر؛ هل كنت أعيش من قبل أن أولد؛ بدأت أتوقع أشياء وأرى أشياء جديدة قد رأيتها من قبل، وكأنني لم يكن أول عهدي بها، من

الممكن أن تكون صدفة أو أنه الروتين الذي أقحمت نفسي فيه، اليوم يتكرر بنفس الأشخاص نفس الشعور، وإن اختلف باطنه قليلًا، نفس الأحداث أجلس عند ترابيزة ٣١ أضيئ اللمبات ثم أشعل السيجارة فيأتيني العامل ليضع فنجان القهوة أمامي، الاختلاف الوحيد هنا في التعود والشعور الذي يقلبه الزمن رأسًا على عقب، من الممكن أن أكون حزينًا ولكن لست كما كنت حزينًا من قبل؛ كما قلت الحزن جرح يترك أثر كلما وضعت يدك عليه شعرت به، فمن الممكن ألا تضع يدك وتتناساه كما تتناسى أشياء كثيرة؛ حتى تستطيع العيش.
العميل رقم ٥١، يجلس عن يساره العميل رقم ٣، يشعل لمبتين فقط، يبدو أنه أكثر حزنًا من العميلة رقم ٧١.
يتميز بلحية كثة تغطي معظم وجهه النحيل، عيناه بارزتان وما حولهما هالات سوداء تظهر من أسفل نظارته، أعتقد أن اسمه جلال، كان يشعر بمستقبل باهر في حياته، يعمل موظف في شركة برمجة، يبدو عليه الذكاء الشديد، يشعر أنه جزء مهم من هذا المجتمع أو بالأحرى أنه لديه حق فيه؛ وتأتي الأهمية فيما هو قادم.
تدخل والدته عليه الحجرة في وقت متأخر فتقول مندهشة:
- «جلال هتفضل صاحي كده طول الليل!»
يرد عليها جلال دون أن يرفع ناظريه عما يفعله:

- «معلش يا ماما بشتغل على برنامج مهم جدًا؛ هاخلص حاجة فيه وابقى أكمل بكره إن شاء الله».
- «اتعشيت؟»
- «الحمد لله يا ماما».
تترك الأم صغيرها بعد تلك الكلمات ليعاود عمله مرة أخرى، فتدخل حجرتها لتخلد للنوم، ظل جلال يعمل على برنامجه شهورًا حتى نسي نفسه، لم يكن ليأكل لولا توسلات أمه بترك برنامجه، بل أحيانًا لا يستحم فكان أشبه بالمتسول؛ ترك لحيته طويلة وشاربه يغطي فيه، حتى أن أمه كانت تشمئز منه أثناء تناوله الطعام فتحاول إقناعه بحلق لحيته أو تشذيبها على أقل تقدير، ولكن كان جوابه دائمًا لا يوجد وقت عندي لفعل ذلك؛ نسي الدنيا وما فيها، وفي يوم من الأيام استقل جلال الأتوبيس المتجه إلى الشركة فمر على كمين في طريقه، أوقفه أمين الشرطة وظن به ما ظن، فسأله عن اسمه وعمله وبطاقة هويته، ولكن لم تكن معه فاصطحبه بشكل غير آدمي ولقي ما لقي من سب وقذف واعتداء عليه، فيعتقد أن صوت فرقعة راحة يد الأمين وهي تصفع قفاه قد سمعتها أمه على بعد ٥١ كيلو متر، أحضرت أمه هويته فضمنته ليخرج ولكن مكسور الخاطر محطم النفس؛ فهو يسمع عن هذا كله ولكن أن يسمع شيء وأن يلقى بنفسه شيء آخر، عرف حينها أنه شخص تافه؛ انكسرت

أحلامه كالزجاج الذي رماه طفل صغير بحجر.
حطم اللاب الخاص به وعلم أن هذا كله لن يُجدي عليه نفعًا، ترك حجرته ليتجول الطرقات كالقطط والكلاب، وإن كان للقطط والكلاب هدف وهو البحث عن طعام، حتى استقر به الحال عند القهوة.
الحق في العيش هو ما يجعلك ترغب في الحياة وتعطيها كل ما لديك لتحقيق الذات، فإن ضاع ذلك الحق فأول ما نفكر به تمني الموت.
إن كان تمني الموت من المحرمات فكيف بإهدار الحق «الظلم»، إن لم تحترم كرامتي وحقي في العيش فكيف أنظر إلى الحياة بغير ذلك المنظور.
الموت تلك الحقيقة التي تطبق على الكل ولا يهرب منها أحد، أكاد أجزم أن الموت هو المساواة الوحيدة بين الناس في الحياة، فلا يوجد مساواة غيرها، على الرغم من تلك المساواة إلا أن الغالبية العظمى لا تريدها وتنفر منها عند سماعها، لكن بالنسبة إليّ فأنا أحب الموت دون أن أتمناه، أحبه لأنه حقيقة لا شك فيها، وكذلك لتحقيق مبدأ المساواة؛ فكل نفس ذائقة الموت.

الحادي والثلاثون
الحياة تسير دون توقف، فالعالم الكبير لا يعرف عنك شيء، لا يعرف شعورك، لا يعرف إلى أين وصل بك الحال، بل إنه لا يعرف أنك على قيد الحياة، بينما العالم الصغير بالنسبة إليك، والذي شكلته طيلة هذه السنوات، تبدد، كلٌ ذهب في طريقه، أنهكتهم الحياة ولا يلامون على شيء، مثلما أصبحت أنت وحيدًا أصبحوا هم كذلك، فمن الأنانية أن تحملهم ذنبك، فهل يضعون همومهم جانبًا من أجلك! ولماذا لا تفعل أنت ذلك؟ لست نادمًا على شيء من هذا العالم سوى أنني لم أعود نفسي على الوحدة، لم أتعرف على نفسي بالقدر المستطاع، وكأنني أواجه شخصًا آخر أخجل أن أحدثه بما فعلته في حقه؛ كلٌ منا قصر في حق نفسه؛ مدى رؤيتك لتقصيرك يعتمد على مدى فراغك، والفراغ يأتي من عدم الأهمية، فأنت

مهمل لا تستطيع فعل شيء، أنت عاجز لا تستطيع السير في أي طريق، وإن حاولت فلن تجد سوى الظلام الحالك، وما الذي ينير طريقك؟ المال! تلك الكلمة القاسية التي أعترف بمفعولها؛ المال يشتري كل شيء حتى السعادة، فمن الممكن أن تصنع جزء منها وإن كان عدم الخوف من الغد والطمأنينة في الحاضر بل راحة البال أيضًا كثيراً ما تكون بالمال، وإن اعترض أحد أن المال لا يشتري الصحة، حسنًا فالمرض مكفول للجميع والدواء يقتصر على من يستطيع ثمنه.

العميل رقم ٥٢، قابع في تلك الزاوية البعيدة، يضع رأسه بين راحتيه كلما انتهى من فنجان قهوته، لا تراه إلا وفي يده السيجارة، فمن الممكن أن ينسى تدخينها ولكن لا ينسى حزنه، ما لفت انتباهي إليه حالة الغنى التي بدا عليها، ففي يده اليسرى ساعة ذهبية، وملابسه لا تدل إلا على ذلك؛ كذلك وجهه العريض الممتلئ.

أتساءل ما الذي دفع ذلك الرجل لليأس؛ أحقًا هناك خلل في تلك النظرية التي وضعتها؟ فالمال يجلب السعادة وإن كان كذلك فلا يعني شيء؛ فكل قاعدة ولها شواذ، ولكن يبقى سر السعادة مبهم إلى الآن، وإن كان الأرجح هو المال، فكيف دخل الحزن قلب ذلك الرجل.

يبدو أن اسمه كمال، في الثالثة والثلاثين من عمره، من عائلة مرموقة لها اسمها ومركزها الاجتماعي، لا يريد

الزواج لعدم توافر الفتاة التي تستحوذ على قلبه، حتى رآها.
كان يسير في الطريق إلى بيته حتى أصدر هاتفه نداءاته فاستجاب إليه بالرد:
- «ألو ازيك يا ماما؟»
ترد أمه عليه مقطبة الجبين:
- «ألو أيوه يا كمال، اتأخرت ليه؟»
- «أنا آسف يا ماما، الطريق كان زحمة خمس دقايق وأكون عندك».
يغلق كمال الخط بعد هذه الكلمات، ثم يزيد من سرعة سيارته للوصول في أقرب وقت، يظهر أمامه شبح لفتاة فلا يستطيع إيقاف سيارته إلا بعد أن تأخذ نصيبها منها، فتصدمها لتقع الفتاة أرضًا مغشيًا عليها.
يخرج كمال من سيارته وعلى وجهه علامات التوتر الشديد، فيحمل الفتاة ويتجه بها إلى أقرب مشفى، يبدو أن الاصطدام كان شديد بعض الشيء، فقد استغرق الطبيب ساعات حتى خرج من غرفة العمليات؛ يتجه إليه كمال وهو يقول بنبرة دلت على ما بداخله من خوف وقلق:
- «هي كويسة؟»
كان يمني نفسه بكلمة: «على أحسن حال»، ولكن وجه الطبيب لا يعبر عما بداخله،

فقال الطبيب بكل آسى:
- «أحنا عملنا اللي علينا، والباقي على ربنا».
تجمع الأهالي داخل المشفى وعلت الأصوات المتداخلة بين السباب والشتم والتهديد، وكمال بينهم يحاول إخماد النار التي أشعلها، تمر الأيام والحالة تتحسن يومًا بعد الآخر؛ لم يترك كمال ضحيته حتى بعد أن استردت وعيها، فكان يأتيها كل يوم حتى شعر بإحساس غريب ينتابه؛ فقد انجذب إليها وأحبها من أعماق قلبه، وهي كذلك شعرت بحنانه تجاهها وعطفه عليها، وابتسامته التي لاحقتها كلما جلس بجانبها، فقد تبدلت مشاعرها ناحيته فاستجابت لنداءات قلبها وأحبته مثلما أحبها، خرجت ندى من المشفى وهي في أحسن حال. كان يلقاها كمال كل يوم حتى جاء يوم أن صارحها بحبه؛ فاشتعلت في نفسها نيران الحب والفرح، ذهب كمال إلى أمه لإبلاغها بقراره الذي سرعان ما نبذته بإصرار وصرامة لم يعهدها فيها من قبل؛ فيقرر عصيانها والزواج من الفتاة، ولكن نيران الغضب أحرقت ضميرها وقلبها فدبرت لها مكيدة للتخلص منها، فلاح لها ذلك وفقدت الفتاة حياتها أثر حادث سيارة مجهول؛ فارقت الفتاة الحياة وفارق قلب الشاب الفرح والسعادة، فهام على وجهه حتى اصطحبته قدماه إلى مكان الأحزان، القهوة.
كانت حكاية كل شخص مختلفة كليًا عن الآخر، ولكن

يجمعهم شيء واحد في مكان واحد، فالحزن جامعهم ومكانهم القهوة، التي لو أكملت النظر حولي لاستطعت كتابة ألف رواية عن أهلها، فالحزن لا يتوقف وقلوبهم لا تعرف معنى للسعادة، لو سألت كل واحد منهم ماذا تريد، سيجيب بأسهل الأقوال: «الموت»، وهو يعلم أن كل شيء بيد الله ولا شيء يُستعصى عليه، فلا يوجد سهل وصعب ولكن اعتقادهم أن الموت أسهل أمانيهم جعلهم يجلسون تلك الجلسة منتظرين موتهم كأنهم ينتظرون المُنجي لهم من الحياة، حتى وإن كان لمشاكلهم حل فيبقى العقل عاجز أمام فكرة واحدة، فلو قصصت على كل واحد قصة الآخر لرأى أنها أهون عليه من قصته، ووجد لها ألف حل فيتسارعون في أيهم أصعب حال وأشد حزنًا، فبعضهم لا يريد الخروج من حزنه فقد اعتاد عليه وكلما فكر في الخروج منه جاءته تلك الوساوس التي يدعيها عقله عن الأمل وما أصعب تلك الكلمة في نفوسنا، فلولاها لسهل الحزن علينا؛ فانتظار الأمل في خوف ومحاولة تمهيد الطريق إليه حتى يُبدد كما تبدد سابقه فنعمل بكل ما في استطاعتنا لتحقيقه حتى يأتي يوم زواله وانتهاء مدته بحقيقة تلازم كل شخص فينا؛ فيشتد الحزن أكثر وإن حاول الشخص الخروج من حزنه؛ يتذكر الأمل المميت الذي حل به سابقًا فيفضل البقاء في عزلته.

الفصل الثاني والثلاثون

لقد خلق الله الإنسان وبه مجموعة ممتزجة من الشعور، فكل واحد منا لديه الحزن والسعادة، الخوف والاطمئنان، الجبن والشجاعة، اليأس والأمل، حتى الخير والشر لا ينفصلان في داخلنا، ولكن بنسب مختلفة، تنتظر عامل محفز ليظهرها، ولا يعتمد على العامل المحفز فحسب بل أنه يتطرق إلى مدى تكوين الشخصية ومنظومة القيم بداخلنا ومدى قوة المؤثر الخارجي علينا. وأجمل ما في الأمر أنك لا تستطيع التخلي عن شعور من بينهم حتى إن كنت تراه سلبيًا، على سبيل المثال الخوف، شعور سلبي ولكنه وسيلة دفاعية لا يمكن الاستغناء عنها، ولا يرجح أيضا أن يغلُب عليك الخوف طيلة الوقت، ولكن من الأفضل أن يظهر عند الحاجة، كذلك الحزن فقناعتي بالتضاد في إظهار المعنى قناعة تامة، فلولا الحزن ما كان لك إحساس بالسعادة، ولولا الحزن أيضًا ما شعرت بأنك إنسان، الدمع يُذرف ليثبت إنسانيتك، ولكن في النهاية يبقى الشعور بنسب محددة داخلنا، وكثير ما يحدث خلل لتلك النسب فيظهر الحزن الدائم أو اليأس الدائم، فتلجأ في نهاية المطاف إلى العزلة.

أجزاء العزلة قد تخلق منك شخصًا آخر، حيث ينقسم عقلك إلى ثلاثة:
الجزء الأول وهو الجزء الذي يشعر بالحزن نتيجة إلى المشكلة التي لحقت بك، والتي أودت إلى تلك العزلة.
بينما الجزء الثاني وهو الجزء المستمع للصوت الداخلي، ويتميز باسترجاع الأحداث السابقة ويكون ناتج عن هذه العزلة. وأخيراً الجزء الثالث، وهو الجزء المفكر في الأحداث المقبلة، ويكون أقلهم تأثيراً، ويرجع تأثيره إلى درجة المشكلة التي يواجهها الشخص المعتزل.
قد تكون سلبيًا بعضًا ما في عزلتك، ولكن من المؤكد أن عقلك يعمل طوال الوقت على الرغم من المحاولات العديدة لإلغائه، فتصبح في هذه الفترة أكثر نضجًا؛ تتذكر الأحداث الماضية وكيف كنت تتعامل معها بسذاجة؛ أحيانًا تكون متعة الحياة في سذاجتها، ولكن عقلك لا يكف عن النقد والحساب لأبسط الأشياء.
أذهب إلى منزلي بعد أن أنهي فترتي في القهوة، أفكر مليًا فيما كتبت، هل للحزن أسباب أخرى؟ الفراق والموت والفشل والإحساس بالضعف والخيانة، هل يوجد غير ذلك؟ أم أنها مجرد كلمات على ورق لا تثبت شيء، ويبقى سر الحزن خفي عنا، ولكن لا يهم سر الحزن الأهم عندي هو سر السعادة.
الأيام تمر، فاليوم كالأمس ولن يختلفا كثيراً عن الغد،

أحدق في كل كلمة كتبتها عن حياتهم حتى أقرر أن أعرف هل ما كتبته شيء من الواقع أم أنه مجرد خيال؟ أبدأ بالتخلي عن لمحاتي البعيدة؛ والدخول أكثر في حياة كل شخص؛ المراقبة والتتبع هي السبيل لمعرفة قصة كل شخص منهم.
بدأت طرق المراقبة سريعًا، فأول ما بدأت بمراقبته العميل رقم ٣، أنتظر موعد المغادرة ليقوم العميل رقم ٣ بالحساب وأنا من خلفه أقفو أثره متخفيًا خلف كل حاجز يقابلني حتى لا يراني.
ينتهي به الحال عند إحدى المستشفيات، فتطرقت للدخول خلفه شغفًا ثم استوقفت إحدى الممرضات وسألتها عن هذا الشخص وما سبب وجوده في هذا المكان؛ تنظر حياله ثم ترد بصرها إليّ قائلة بكل أسى:
- «ابنه الوحيد بين الحياة والموت».
أُلقي الحزن في قلبي بعد سماع تلك الكلمات.
أسألها مرة أخرى عن علته؟ لتجيبني بنفس نبرة الصوت الحزينة:
- «جاء هذا الأب منذ خمسة أشهر إلى هنا حاملًا ابنه بين ذراعيه ينادي بأعلى صوته: «ابني بيموت»، تقدمنا نحوه وقمنا بعمل ما يلزم حتى عادت إليه دقات قلبه، ولكن ليس أمامه الكثير في الحياة».
أرمي إليها بفكرة وكأنها لم تخطر على خاطرهم:

«لماذا لا يقوم الطبيب بعمل جراحة في قلبه يجعله يتحسن؟»
تبتسم الممرضة من سذاجتي بابتسامة تنم عن مدى السخرية من قولي ولكن تجيبني معللة سخريتها بقول:
- «ليس بهذا القدر من السهولة، لا بد من استقدام أعظم الجراحين، وهناك أشياء لا تتوفر عندنا في هذا المكان؛ فالأب ينتظر موت ابنه البطيء».
تتركني الممرضة وتذهب لتباشر عملها، أعود إلى منزلي بقلب مترع بالحزن على فلذة كبد هذا الرجل، فأصعب ما ينتظره إنسان هو الموت، فتموت كل يوم خوفًا وأملًا؛ خوفًا من إدراك الموت وأملًا في الشفاء.
أشعر بالحزن الذي يغشى قلبي وينصاع إليه عقلي في تفكيره عن هذه الحياة التي لا تعطينا ما نحب ويبقى كل ما نلوذ به المال حتمًا المال؛ فلولا نقصه لرأيت الأب يسافر إلى أعظم الدول فيرجع وابنه بين أحضانه سالمًا، لا يوجد حل؛ فليس لوجودي نفعًا ولا ضرًا، أعود إلى مذكرات القهوة فأمزق صفحات العميل رقم ٣، فقد أخطأت في تقديري للأمور، أشعر أنني لست بحاجة إلى إكمال المراقبة، فقد ترسخ في تفكيري سرًا للسعادة، وترسخ في قلبي هم وحزن لا أريده أن يتراكم عندي أكثر من ذلك؛ فيكفي أنني عاجز أمام العميل رقم ٣، ولكن سأكمل فمن الممكن أن أجد حل لشخص آخر، ومن

الممكن أن أكون على خطأ في تفكيري عن سر السعادة.
أكمل المراقبة فأتجه إلى العميل رقم ٥١، أشرع في السير خلفه دون شعور منه حتى ينتهي به الحال عند إحدى المكاتب الكبيرة التي لا أعرف لها عملًا بالتحديد، أظل واقفًا في الخارج بالقرب من المكتب أنتظر خروجه، وما هي إلا دقائق حتى أسمع أصوات متداخلة بين السباب والشتم، ومن بعدها يخرج الشاب مقذوفًا من المكتب إلى الشارع والسباب ما يزال ينهال عليه، يقوم من على الأرض فيبعد الثرى عن ملابسه ويكمل طريقه بعد ذلك بعين مترعة بالانكسار واليأس، أتجه إلى فراش المكتب لأسأله عن ما حدث لذلك الشاب، بعد أن رحبت به على طريقته ليقول فراش المكتب وهو يصفع كفًا بكف: «يا حول الله».
«الشاب ده كاتب مش معروف، واحد ابن حلال دله على أستاذ خليل؛ في الأول كان أستاذ خليل معجب بكتاباته وكنت بسمعه دايمًا بيشجعه، وجه في يوم حصل خناقة كبيرة بينهم، عرفت إن أستاذ خليل عاوز ياخد تعبه ويديله شوية فلوس، الشاب ما رضيش وقال لأستاذ خليل إنه هيفضحه، فطرده من المكتب ودلوقتي كان جاي يقوله إنه موافق على عرضه؛ فحصل زي ما أنت شوفت كده يا بيه».
قال فراش مكتب الأستاذ خليل كلماته ثم ذهب وهو

يستغفر الله ويصفع كفًا بكف.
أتأمل ذلك الموقف وأقول كما سبق لي قوله، المال هو طريق السعادة، فلولا نقص المال عند الشاب ما كان له قُبول الشتم والسب بنفس منكسرة، أتجول في الطرقات بلا هدف، أركل الحصا بقدمي، وأردد على لساني:
«المال، المال

الفصل الثالث والثلاثون

ما زال سر السعادة يكمن في المال، ولا يتبقى أمامي سوى العميلة رقم ٧١ والعميل رقم ٥٢، هل يثبتون تلك النظرية، أم أن هناك سر خفي لم يُكشف إلى الآن عن السعادة.
أقوم بمراقبة للعميلة رقم ٧١، حتى يستقر بها الحال عند عمارة من ناطحات السحاب، إن كانت تملك شقة بها فهي من أسرة متوسطة، وإن كانت صاحبة العمارة فهي من أسرة غنية فما هو سر حزنها! في كلتا الحالتين لا أعتقد أن المال يشكل لها عائق، أشعر بصعوبة بالغة للوصول إلى أي معلومة تخصها، ولكن لم أفقد الأمل؛ أمد حبال الود بيني وبين بواب العمارة حتى أستطيع معرفة قصتها أعرف اسمها وأن لأهلها تلك العمارة، ولكن لم أعرف بعد سر حزنها، بعد يومين من توطيد العلاقة بيني وبين عم حسنين البواب، كنت أجلس بجواره حينما دخل

شاب أنيق يلبس بدلة سوداء يفوح منه رائحة عطره، أميل إلى أذن عم حسنين وأقول بصوت خفيض:
- «مين الشاب ده يا عم حسنين؟»
يضع عم حسنين كوب الشاي جانبًا وينظر إلى هذا الشاب نظرة ثاقبة ثم يقول رادًا بصره إليّ:
- «هتلاقيه عريس للست هايدي إلى في الدور الرابع».
- «هايدي دي اللي قلت لي عليها أبوها صاحب العمارة، ولا فيه هايدي تانية؟»
- «لا هي يا رامي يا ابني».
- «غنية؛ وناس محترمة عاوزة تتجوزها، طيب فين بقى المشكلة!»
- «بتقول حاجة يا ابني؟»
- «لا أبدًا يا عم حسنين».
بعد نصف ساعة هبط الشاب وعلى وجهه علامات الحزن، بعد أن تبعه عم حسنين بنظره حتى ابتعد؛ قال بتلقائية شديدة:
- «كل يوم من ده، يجي العريس ويترفض».
أنظر إليه مستغلًا تلقائيته، فأقول متسائلًا:
- «ما تعرفش بترفضهم ليه يا عم حسنين؟ ده شكله ابن ناس».
- «يا ابني كل اللي بيجوا ولاد ناس، بس كلام في سرك، سمعتها مرة بتكلم واحد كان جاي يوصلها، وبتقول له

يجي يتقدم لها».
- «آه وبعدين إيه اللي حصل يا عم حسنين؟»
- «الواد جه وشكلهم رفضوه؛ شكله فقير، تسيب كل دول وتروح للفقير!»
- «أهو مش بأديها برضو يا عم حسنين تلاقيها بتحبه، يعني لو بنتك كنت هتجوزها لمين؟»
- «للغني طبعًا يا ابني؛ الفقر وحش أوي، اسألني أنا، ربنا يصلح لها الحال».
أترك نصف كوب الشاي دون إكماله وأستأذن للمغادرة ليعترضني عم حسنين قائلًا:
- «كمل يا ابني كوبايتك».
أرد عليه ممتنًا:
- «شكرًا يا عم حسنين، أنا بس افتكرت مشوار كده».
أغادر، كنت أظن في بادئ الأمر أن حزنها لا علاقة له بالمال، ولكن هو كذلك، تتردد كلمة عم حسنين في أذني: «الفقر وحش أوي»، لم نولد بإرادتنا ولم نختر أهلنا حتى يحكموا علينا بالغنى والفقر.
فأنا بنفسي؛ حاسبني على تقصيري ولا تحاسبني على تقصير أهلي، فالمناسب للزواج الآن ليس الرجل بل أهله، حتى وإن كان سيء، لم يعد أحد يقدر الاجتهاد، فالجميع لا يقدر إلا المال.
في غياهب تفكيري عن المال أتذكر العميل رقم ٥٢، غني

وحزين، فليس للمال علاقة بالحزن والفرح،
كنت شغوفًا لمعرفة قصته الحقيقية.
أذهب في اليوم التالي بشغف أراقبه لعلي أعرف السبب الحقيقي للحزن والفرح، يقف العميل رقم ٥٢، بسيارته عند إحدى أكبر المستشفيات في المدينة؛ أبتعد عنه قليلًا مادًا إليه بصري أراقبه دون أن يراني. يحاول العميل رقم ٥٢ الدخول ولكن يتم منعه من قِبل الأمن، بعد القليل من المشادات يطلب من أحدهم استدعاء زميله في المشفى، بعد لحظات يخرج زميله فيقبض على يده ويتجه به إلى الاستراحة المواجهة للمشفى، أنتهز تلك الفرصة وأجلس على مقربة منهما لأسمع ما يدور بينهما.
يبدأ العميل رقم ٥٢ حديثه فيقول بنبرة غاضبة:
- «يا محسن لحد أمتى هفضل موقوف عن العمل! أنت عارف إني بحب الشغل، أنا مستعد أدفع فلوس وأشتغل».
يربت صديقه محسن على كتفه ثم يقول:
- «معلش يا علي أنت غلطت كتير وبسببك أكتر من حالة ماتت».
ينظر إليه الدكتور علي في أسف وحزن ثم يقول متابعًا حديثه:
- «الحالات كانت هتموت وكان لازم أعمل حاجة؛ أنا عرفت غلطي وهصلحه، أنا اكتشفت نظريات جديدة في

العيادة اللي في بيتي».
- «بلاش يا علي؛ المدير مش هيوافق على الكلام ده، خصوصًا إنك اتعديت حدودك معاه ومالتزمتش بتعليماته».
- «خلاص يا محسن مفيش أمل إني أرجع، روح أنت شوف شغلك».
بدا على وجه الدكتور علي الحزن، فهام على وجهه تاركًا سيارته.
المال لم يكن العائق أمامه، فالمال حقق له عيادته ودراساته، ولكن ظل حزنه يلازمه على الرغم من كثرة ماله، هناك ما هو أساس للسعادة دون المال فما هو!
أذهب إلى القهوة مثلما اعتدت أن أفعل ولكن بشعور مختلف، شعور القدرة على التغير، شعور أنني جزء من هذا العالم أستطيع أن أساعد في تغير نمط حياة أكثر من شخص.
عند مغادرة العميل رقم ٥٢، وبعد تجاوزه باب القهوة أحاول إيقافه ولكن دون جدوى، فلم يتحرك له ساكنًا وكأنه لا يراني أو يسمعني، حتى أقرر أن أتخذ أخر محاولاتي لإيقافه فألقي إليه كلمتي قائلًا:
- «أنا أقدر أساعدك ترجع تشتغل».
يقف الدكتور علي عندما يسمع ذلك فيتجه نحوي ثم يقول متسائلًا:

- «أنت قلت إيه؟»
أعيد عليه كلمتي:
- «أنا أقدر أساعدك ترجع تشتغل».
- «وأنت عارف أنا شغال إيه! وعرفت كمان مشكلتي، عرفت كل ده ازاي؟»
- «مش مشكلة، أجل أي سؤال دلوقتي، في حالة بتموت وعاوزينك تنقذها».
- «بجد! أنا مستعد أعمل كل اللي أقدر عليه، وإن شاء الله الحالة تعيش».
- «بس فيه طلب تاني».
- «إيه هو؟»
- «أنت شكلك ليك معارف كتير، لو تعرف دار نشر أو حاجة زي كده».
- «أنت كاتب؟».
- «مش أنا، واحد تاني يا ريت لو تساعده».
- «ماشي، بس مين اللي عاوز يعمل العملية؟»
- «بكره تعالى القهوة زي كل يوم، وأول ما نخرج أبقى استنى».
- «ماشي».

الفصل الرابع والثلاثون

أحضر إلى القهوة أدخن سيجارتي، فيأتيني العامل ليضع

القهوة أمامي، أتذوقها، يا لجمالها وروعة مذاقها الآن، كما قلت الوقت له سحره ومفعوله وتوطيد النفس لها عامل كبير في ذلك، أنتظر موعد المغادرة بفارغ الصبر يخرج الدكتور علي أولًا فينتظرني.
ومن بعده يخرج العميل رقم ٣، فيتجاوز الردهة إلى الخارج أقفو أثره فأتبعه بنداءاتي للوقوف حتى يقف وينظر إليّ، أقترب منه لأرى ما رسمه الزمان على وجهه من عبوس وتجهم، أقول بشكل سريع قبل أن يتركني ويغادر:
- «أنا عارف مشكلة ابنك وعندي الحل».
ينظر إليّ الرجل في فرحة مشوبة بالدهشة، ثم يقول بأنفاس متقطعة:
- «تعرف تساعده ازاي يا ابني؟»
أشير إلى الدكتور علي الذي لم يبعد عنا كثيراً فقد كان يقف على مقربة منا، فيحضر،
أتابع حديثي مشيراً إلى الدكتور علي لتعريفه للرجل:
- «أعرفك بالدكتور علي، هو اللي هيعمل العملية لابنك من غير ولا مليم».
- «بس يا ابني ده العملية ما ينفعش تتعمل غير بره، عاوزة حاجات غير اللي هنا».
يرد عليه الدكتور علي وهو يربت على كتفه:
- «ما تقلقش يا حاج، أنا عندي في عيادتي أحدث

الأجهزة».
بكى الرجل بكاءً حارًا، فاحتضنه الطبيب وهو يحاول تهدئته.
حدد الدكتور علي موعد العملية لتكون في اليوم التالي، واستدعى فريقه الخاص وقام بوضع كاميرات للتسجيل أثناء الجراحة.
بعد ساعات خرج الطبيب والحزن يخيم على وجهه فقال الأب مرتجفًا:
- «خير يا دكتور؟»
يرد عليه الدكتور علي وهو يضع يده اليمني على الكتف الأيسر للأب ويقول بحماسة:
- «العملية نجحت».
احتضن الأب الطبيب والدموع تنهمر من عينيه وتفجرت ينابيع الفرحة في المكان، أنظر إلى ذلك المشهد وأنا أشعر بالسعادة والفخر داخلي، فقد كنت سببًا في سعادة هؤلاء.
يقّبل الطبيب تجاهي ويقول مبتسمًا:
- «أنا مش هنسى لك اللي أنت عملته يا رامي».
أرد عليه بخجل:
- «ما تقولش كده، ده واجبي، بس قل لي أنت استفدت إيه؟»
- «بص يا سيدي أول حاجة أنا أنقذت روح بإذن الله،

وساهمت في فرحة أب، وأخر حاجة أنا بالفيديو بتاع العملية والنظريات إلي وصلت لها هابعتها للمدير، وساعتها هيتأكد إني فعلًا عرفت غلطي وإني ما بكدبش عليه».

- «ربنا يوفقك، بس ما تنساش وعدك».

- «وعد إيه؟».

- «الكاتب الـ...»

- «أه، خد الكارت ده وخليه يروح العنوان اللي فيه؛ أنا كلمت الناس هناك».

أبتسم إليه ثم أودعه وأذهب.

في اليوم التالي أذهب إلى القهوة، يومًا كالذي يسبقه، لا جديد في الشعور على من حولي، ولكن كان هناك اختلاف في المكان، فلم يتواجد العميل رقم ٣ والعميل رقم ٥٢، أنتظر حتى موعد الخروج.

يخرج العميل رقم ٥١، فأتبعه حتى أوقفه فأقول مبتسمًا:

- «خد الكارت ده».

يرد عليّ العميل رقم ٥١ بدهشة كبيرة:

- «إيه ده؟ وأنت تعرفني منين؟»

- «مفيش وقت، خد الكارت ده وروح العنوان وقدم روايتك ليهم وإن شاء الله هتتقبل».

- «أنت بتتكلم جد؟»

- «أه بتكلم جد، روح ما تضيعش وقت».

- «بس أنت بتعمل كده ليه؟»
- «مش عارف، بس ممكن أكون بحس بجزء من السعادة لو قدرت أساعد غيري، مش مهم دلوقتي، المهم روح بسرعة وقدم روايتك».

الفصل الخامس والثلاثون

ما هي السعادة؟ هل السعادة تكمن في مساعدة الغير؟ لا أعتقد ذلك، قد تكون سعادة مؤقتة أو أنها جزء منها، بينما السعادة الحقيقية تكمن في مساعدة النفس، يتبقى ثلاثة أيام على انتهاء المدة التي منحني خالي إياها، هل اترك والدتي وحيدة وأذهب للخارج؛ كان من الممكن أن أفعل ذلك قبل أن أكتشف أن السعادة الحقيقة ليست بالمال، ولكن ما زال سر السعادة مبهم بالنسبة إليّ.

أذهب إلى القهوة فلا أجد أحد من أبطال روايتي، حتى الفتاة التي لم أعرف كيف لي بمساعدتها والتي شغلت فكري مؤخرًا لم أجدها، الكل قد اختفى، بدأت إدارة المكان عمل البحث والتحريات عنهم حتى يتسنى لهم منح المقاعد الجديدة لغيرهم بداية من الشهر المقبل، والذي سيبدأ من الغد.

في اليوم التالي أتجه إلى القهوة كعادتي، وقبل الدخول أسمع صوت أحدهم ينادي عليّ، فأنظر خلفي لأرى العملاء الأربعة يقفون في انتظاري.

أتجه إليهم مبتسمًا ثم أقول:

- «خلاص مش هتيجوا تاني؟»
يرد عليّ الدكتور علي بابتسامة تضاهي ابتسامتي:
- «لا خلاص؛ أحنا جايين نشكرك على اللي أنت عملته، المدير وافق إني أرجع، وكرمني كمان، واعترف بنظرياتي».
- «مبروك يا دكتور، أنا ما عملتش حاجة، أنتم اللي ساعدتوا نفسكم بإديكم».
- «لا يا رامي، أحنا هنا من شهور، لو كنا نعرف نساعد بعض كنا عملنا كده؛ السبب هو أنت، زي ما العزلة كان ليها مميزات كان ليها عيوب، وأنت لازم تبطل تروح المكان ده من دلوقتي؛ إيه اللي مزعلك واحنا نساعدك؟»
«أنا مش زعلان، أنا ببحث عن سر السعادة، وأول ما ألقيه هابطل أروح المكان ده، غريبة مش أنتِ اللي كنتِ على ترابيزة رقم ٧١؟»
تبتسم هايدي ثم تومئ برأسها قائلة:
- «أه، وده أحمد خطيبي الكاتب المشهور».
- «بجد قبلوا عملك؟»
يجيب أحمد مبتسمًا:
- «أه قبلوه الحمد لله، وخدت دفعة من الفلوس قبل النشر، ودا كان ضد سياستهم بس هما كانوا واثقين من العمل، وغير إن الدكتور علي ادخل وساعدني عشان أخطب هايدي».
- «الحاجة الوحيدة اللي ما عرفتهاش لحد دلوقتي هو

اسم العميل رقم ٣».
يجيب الرجل ضاحكًا:
- «أنا عمك سعيد، وبشكرك أوي يا رامي؛ ابني الحمد لله فاق وقريب هيقوم ويملا عليا البيت».
- «الحمد لله، عم سعيد! أنا ما كتبتش حاجة صح خالص».
- «بتقول إيه يا ابني؟»
- «يعني ما اسمكش عصام خالص، ولا حتى اسم الدلع».
يقول عم سعيد ضاحكًا:
- «لا يا رامي يا ابني، إيه حكاية عصام دي؟»
- «لا أبدًا ما تشغلش بالك».
يتجه الدكتور علي تجاهي ثم يربت على كتفي وهو يقول مبتسمًا:
- «لو احتجت حاجة يا رامي احنا جنبك على طول».
- «شكرًا ليكم، أنا سعيد فعلًا إني عرفتكم».
ألوح لهم بيدي حتى يختفوا العملاء الأربعة عن ناظري، أمرق إلى القهوة وأنا أحاول تخيل أخر نظراتهم السعيدة وأقارنها بما سبقتها من نظرات أثناء عزلتهم، فأتساءل ما سر سعادتهم؟

الفصل السادس والثلاثون

أتجه إلى الداخل وفي طريقي إلى المكان الداخلي عبر الدهليز أتوقف فجأة وأنا أصيح عاليًا:

«عرفت السر، عرفت السر». الرضا والصبر هما سر السعادة، فكان من الممكن أن يذهب ابن عم سعيد إلى الخارج وعند إجراء الجراحة تفشل ويفارق الحياة، وكان من الممكن أن تتزوج هايدي برجل آخر على الرغم من نجاح أحمد ككاتب، وكذلك الدكتور علي كان من الممكن أن يفشل في إجراء العملية، أو أن مديره لا يعترف بنظرياته رغم نجاحها، الرضا بالحال هو سر السعادة، إن نجحت أو فشلت حتى ولو بعد محاولات عديدة، فتيقن أن الرضا سيدفعك للأمام، فهو سر وقوفك على قدمك رغم صعوبة الظروف؛ إن لم تكن السعادة تكمن في الرضا والصبر فمن المؤكد أنهما المانع للحزن، فهما مفتاح السعادة وإن لم يكن الآن فمن المؤكد أن السعادة ستأتي لاحقًا.

أمرق إلى الداخل عبر الباب للمكان الداخلي أجلس حيث مكاني ترابيزة رقم ٣١، أشعل سيجارتي، ثوانٍ حتى أُحضرت القهوة الخاصة، أخذ نفسًا عميقًا ثم أنظر حولي، لأرى أصدقائي الثلاثة أمجد ومحمد وإبراهيم؛ ننظر إلى بعضنا البعض فنهم بالقيام سويًا مع ابتسامة وقبل أن نبرح أماكنا نعود إليها حيث كنا، وكأننا تذكرنا أنه لا يوجد لأحد منا حل عند الآخر، يعود كل واحد للنظر إلى قهوته والدخان المتصاعد منها. أرتشف قهوتي الساخنة، ثم أدخن نفسًا عميقًا

من سيجارتي ليتصاعد دخان في الهواء يرسم متاهات حياتنا.
الساعة الثانية صباحًا لا أستطيع النوم؛ عقلي لا يكف عن التفكير، أشباح الماضي تطاردني، وغياهب المستقبل تقتلني، لأصطدم بذلك الواقع الحتمي المرير، أتجه إلى تلك المحاولات البائسة التي علمتني أمي إياها عند الصغر، فأبدأ بالعد حتى أصل إلى ثلاثة آلاف، ولا يحالفني النوم، لم أحظ من تلك المحاولات سوى بجفاف فمي، أشعل نور الغرفة ثم أذهب إلى المطبخ لاحتساء القليل من المياه، في طريق عودتي للغرفة أسمع أذان الفجر، فأذهب إلى الحوض لأتوضأ ثم أؤدي فريضة الصلاة، أعود إلى الغرفة مرة أخرى بنفس مطمئنة لأتكئ على جانبي الأيمن، أشعر بالراحة الآن، ولكن لا أريد أن أنام، أريد أن أكون مستيقظًا حتى أرى تلك التخيلات حقيقة تحدث؛ فالموت والفراق لا بد لهما أن يحدثا يومًا ما، أريد أن أكون أكثر يقظة؛ تدعوني نفسي لعمل فنجان من القهوة، أستجيب لها وأذهب على الفور إلى المطبخ ثم أعود.
في طريق عودتي أسمع صوت هاتفي برسالة.
«آسفة يا رامي، ما عرفتش أكلمك امبارح بالليل، أختي كانت تعبانة وراحت المستشفى».
أأخذ فنجان قهوتي وأتجه إلى الشرفة، أشعة الشمس تخترق السحاب وتبدد ما تبقى من ظلمة الليل كما تفعل بنا الأيام فتبدد ما تبقى من جهلنا على حقيقة نغفل عنها.
أحتسي أخر حسوة في الفنجان، ثم ألعق بإصبعي أخر ما تبقى من شوائب القهوة.

(تمت)

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail :- Fasla. Pub@Gmail. com

Facebook. Com/Fasla. Pub